

# القرآنُ وبناء القوتينِ

و.عبد العزيز بن محمد آل سعود - الشيخان



العبيكان  
Obekon

و.عبد العزيز بن محمد آل سعود - الشيخان

القرآنُ وبناء القوتينِ

العبيكان  
Obekon

## هذا الكتاب..

يتناول هذا الكتاب (القرآن وبناء القوتين) فيضاً من القول. نحو قوة، ينفردُ بها المسلمون دون سواهم. إنها قوة مع قوة، نبه إليهما القرآن في سورة الحديد بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فهما قوتان متلازمتان: ناعمة وصلبة. ناعمة روحية، تبني النفوس المسلمة من الداخل. وتدفع بالجنود للاصطفاف والإقدام والتضحية. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَهُمْ مَرْصُومٌ﴾ [الصف: ٤]. والثانية: حسيّة مادية صلبة. أمر الله بإعدادها وامتلاكها والإرهاب بها. ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

## هذا وفي الكتاب فصول:

تناولت أهمية بناء القوتين. وبيان مكائد الخصوم نحو إبطال القوة الناعمة التي تتمتع بها الأمة الإسلامية دون سواها من الأمم.

ISBN: 9786035095709



9 786035 095709

تواصل معنا

CONTACT US



# القرآنُ

وبناءُ القوَّتين

و.عبدُ العزيز بن عبد الرحمن السنيان

العيون  
Obékan

© شركة العبيكان للتعليم، 1446هـ

الثنيان، عبدالعزيز بن عبدالرحمن

القرآن وبناء القوتين. / عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان - ط1: - الرياض، 1446هـ.

208 ص؛ 14 × 21 سم

ردمك: 9-570-509-603-978

1. الإسلام - نظام الحكم
2. الاستراتيجية العسكرية الإسلامية
3. العسكرية الإسلامية
4. الغنائم
5. الطاعة

رقم الإيداع: 1446 / 14502

ديوي: 257

الورق وسماكته: بوك لوكس 70 غ

غلاف الكتاب: برش 4 ألوان

ألوان الداخلي: أسود

الطباعة في: شركة العبيكان للطباعة.

مكان النشر: المملكة العربية السعودية، الرياض.

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى 1446هـ / 2025م

نشر وتوزيع  
العبيكان  
Obaikan

المملكة العربية السعودية - الرياض - طريق الملك فهد - مقابل برج المملكة

هاتف: +966 11 4808654، فاكس: +966 11 4808095، ص.ب: 67622 الرياض 11517

جميع الحقوق محفوظة. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ (فوتوكوبي)، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.





## الفهرس

٧	..... المقدمّة
١١	١. ما القوّتان ؟
١٧	٢. ما قَبْلَ القُوَّتَيْنِ
٢١	٣. البداية
٣٣	٤. العدل !
٤١	٥. الحدود الشرعية
٤٥	٦. العِزَّةُ والاسْتِقْلَالُ
٥١	٧. قِيَمُ البِنَاءِ
٥٩	٨. أُمُّ كُبَّة !
٦٥	٩. الوعد الرياني
٦٩	١٠. الفوز بالأفضلية
٨١	١١. الجمالُ والقوة الناعمة
٩٧	١٢. الحقوق المالية !
١٠٣	١٣. يوم التلاق !
١٠٩	١٤. الترغيب في الجنديّة

- ١١٩ ..... ١٥. ثبات الجُند
- ١٢٥ ..... ١٦. التمويل العسكري
- ١٣١ ..... ١٧. الاصطفاف العسكري
- ١٣٧ ..... ١٨. خبراء القَوَّيْن
- ١٤٥ ..... ١٩. السُّلْمُ وَالصُّلْح
- ١٥٥ ..... ٢٠. البَطْر والغرور
- ١٦٩ ..... ٢١. الخلاف والنزاع
- ١٧٥ ..... ٢٢. توزيع الغنائم
- ١٨١ ..... ٢٣. الحُكْم والطاعة
- ١٨٩ ..... ٢٤. خصومُ الناعمة
- ١٩٩ ..... ٢٥. القَوَّتَان والسعودية!

## المقدّمة

الحمدُ لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإنَّ بالقرآن تكون الهداية، وفي القرآن نجد العلم، وقد أمرنا الله تعالى بقراءة القرآن وتدبره، فقال: ﴿كُنْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وعاب الله الغافلين عن التدبر بقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

ومن القرآن نستنبطُ مناهجنا في الحياة، ووسائل عزتنا وكرامتنا، وعوامل بقائنا ومهابتنا، وفي القرآن السياسةُ والتعاملُ مع المخالف، وفيه التاريخُ. وفي قراءة التاريخِ عِظَةٌ واسترشادٌ، والأهمُّ من التاريخ معرفةُ الدروسِ

والتعلم منها، والغوص في أعماق التاريخ لاستكشاف وسائل العزة والكرامة، وأسباب القوة والمنعة. لقد أمرنا الله سبحانه في القرآن بوجوب الإيمان به، وإفراده بالعبادة ﴿الرَّكِنُ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ ١ ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنَّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [هود: ١-٢].

وتكررت الأوامر الربانية بطاعته، وطاعة رسوله محمد ﷺ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وعرض القرآن تاريخ الأمم، وكيف أخذهم الله بالعقوبة حين عصوا، وأمر الله جلَّ جلاله باتخاذ وسائل القوة والمنعة، فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ففي هذه الآية أمر إلهي بالتأكيد على بناء قوة الدولة

الصلبة، وأشار القرآن الكريم في آية أخرى إلى بناء القوتَيْن، الناعمة والصلبة، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويقتضي تنبيهُ الله لأهمية القوتَيْن في هذه الآية؛ الكتاب والميزان، والسيف، أن نبحت عن موضوع القوة بفرعيها؛ الناعمة والصلبة، ونأخذ بالتوجيه الرياني في توظيفهما؛ لأمن الوطن وبنائه، وهيبته ومهابته وتماسكه. ومن هنا برزت فكرة هذا الكتاب؛ للبحث في شأن القوتَيْن، ومعرفة تاريخهما، ونتائج توظيف القوتَيْن في بناء أمة الإسلام وحضارتها، وما نتج عن ذلك من مدٍّ وجزر، فضلاً عن وسائل الخصوم في مقاومة القوتَيْن.

وأملّي أن يجد القارئ الكريم الفائدة المرجوة من هذا الكتاب، وأن يعرف سرّ الخطاب القرآني في تركيزه على مكامن القوتين، وأثرهما في بناء الفرد والمجتمع، ونهضة الأمة الإسلامية واستقرارها ورقّتها.

هذا وبالله التوفيق.

المؤلف

د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثّنيان

الرياض ١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٥ م

البريد الإلكتروني : [abdulaziz.alobeikan@gmail.com](mailto:abdulaziz.alobeikan@gmail.com)



## ١. ما القوتان؟

وجّه القرآن إلى إقامة القوتين؛ الناعمة والصلبة، وتفعيلهما لإقامة العدل. والقوتان التي أرشد الله إليهما؛ هما: القوة الناعمة، وهي ما احتوته كُتُبُه المقدسة من علم وتعاليم وقيم تبني الإنسان من الداخل، تبنيه نفسياً وذاتياً، وتجعل منه فاعلاً مؤثراً عادلاً مع نفسه وفي كل شؤونه، وتلك مُهَمَّةُ العلماء. والقوة الصلبة الرادعة والقاسية الدافعة، وهي الحديد وما يرمز إليه من أنواع القوة الخشنة من سلاح كالمدفعية، والسيوف، والرماح، ووسائل أخرى، وتلك مسؤولية الحكّام، فلهم السياسة والقيادة.

قال عقبة بن عامر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى الْمَنْبَرِ يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾

[الأَنْفَال: ٦٠]: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِّيَّ»<sup>(١)</sup>.

إِذَا فَالْقُوَّتَانِ هُمَا: الْقُوَّةُ الرُّوحِيَّةُ، وَالْقُوَّةُ المَادِيَّةُ، وَقَدْ جَاءَ التَّوْجِيهُ صَرِيحًا وَاضِحًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

لقد ذكر الله في هذه الآية ما مَنَّْ به على البشرية؛ من إرسال الرسل، وتأييدهم بالحجج الباهرة، وبما أنزله سبحانه معهم من كتب طاهرة مقدسة، تحوي خير البشرية وعزها، وعبر عن ذلك بالفعل (أَنْزَلَ) الذي يقتضي وجود مَنْزِلٍ، وَمُنزَلٍ، وَمُنزَلٍ إليه.

(١) أخرجه مسلم (٢/١٥٢٢ رقم ١٩١٧).

لقد امتنَّ الله سبحانه علينا بإنزال الكتب المقدسة الكاملة، وهي تحوي العلم الذي تحيا به النفوس، وتُبنى به الأمم، ونصَّ سبحانه في هذا السياق على الميزان، وهو العدل؛ فبه تطمئن المجتمعات، ويعمُّ الأمن والسلام. كما امتنَّ الله سبحانه علينا أيضًا بإنزال الحديد، ووصفه بالبأس الشديد، وهو القوَّة الصلبة، وكما ذكر سبحانه أنه أنزل الكتاب والميزان، ذكر أنه أنزل الحديد، وعطف إنزال الحديد على إنزال الكتاب والميزان، والمعطوف يأخذ حُكمَ المعطوف عليه.

فالقُوتان إذاً هما؛ القرآن والسيف، فبالقرآن تُبنى النفوس من الداخل وتحيا، وبالعدل والميزان، يتحقق العدل والاستقرار، وبالدولة والحديد تكون القوَّة والمهابة. وختم الله جلَّ جلاله الآية بذكر اسمين من أسمائه الحسنَى هُما: القوي، والعزيز، وهذا ما يُريده سبحانه لأمة الإسلام، يريد لها القوَّة، والعزَّة!

قال ابن كثير في تفسيره: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾: «أَيُّ: وَجَعَلْنَا الْحَدِيدَ رَادِعًا لِمَنْ أَبِي الْحَقِّ وَعَانَدَهُ بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ؛ وَلِهَذَا أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ بَعْدَ النَّبُوَّةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً تُوحَى إِلَيْهِ السُّورَةُ الْمَكِّيَّةُ، وَكُلُّهَا جِدَالٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَبَيَانٌ وَإِيضاحٌ لِلتَّوْحِيدِ، وَتَبْيِإْنٌ وَدَلَالِيلٌ، فَلَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى مَنْ خَالَفَ، شَرَعَ اللَّهُ الْهَجْرَةَ، وَأَمَرَهُمْ بِالْقِتَالِ بِالسُّيُوفِ، وَضَرَبِ الرُّقَابِ وَالْهَامِ لِمَنْ خَالَفَ الْقُرْآنَ وَكَذَّبَ بِهِ وَعَانَدَهُ»<sup>(١)</sup>.

ومما ورد في تفسير الشيخ ابن سعدي: «يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاؤوا به وحقيته.

﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسم جنسٍ يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم إلى ما

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ٢٠١٤هـ - ١٩٩٩م (٨/٢٧-٢٨).

ينفعهم في دينهم ودنياهم. ﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال.

والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدلٌ وقسطٌ في الأوامر والنواهي، وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك، وذلك ﴿لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها، وهذا دليل على أن الرسل متفوقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك. ﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والأواني وآلات الحرث، حتى إنه قلّ أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد... ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوّته وعزّته أن

أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه ولكنه يبتلي أوليائه بأعدائه ليعلم من ينصره بالغيب»<sup>(١)</sup>.

ونبه الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ للقوتين والأثر الإيجابي الناتج عن اقترانهما، فقال: «وقرَنَ تعالى في هذا الموضوع بين الكتاب والحديد؛ لأنه بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدلُّ به على حكمة الباري وكماله، وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله»<sup>(٢)</sup>.

هذا، وكما للقوة الصلبة من هيبة ومهابة، فالقوة الناعمة أيضاً تصنعُ المُقاتلين الأبطال، وتدفعُهُم للقتال والذود عن دين الله بشجاعةٍ وبسالة، وتضحيةٍ وفداء.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م (ص ٨٤٢).

(٢) المصدر السابق.

## ٢. ما قبل القوتين

عاش العرب قبل الإسلام مع العادات والأعراف القبلية، ومع السيف، مع القوّة الصلبة وحدها، وكثيراً من الأمم هي كذلك، وإلى اليوم.

إن الكثير من الدول تعيش مع القوانين البشرية الوضعية الناقصة، ومع القوّة الخشنة فقط؛ فالسيف هو الفيصل والحكم، هو القوّة الجافّة المسيطرة، والناس يعيشون الخوف والرعب، وليس ثمّة قوّة روحية تهابها النفوس وتلتزم بها، إنما رهبتهم بالسلاح. وكانت دولتا فارس والروم قبل الإسلام على أطراف الجزيرة العربية تتفوقان بالقوّة الصلبة، ولهما الغلبة والشأن، والعرب في الجزيرة العربية يعيشون سنوات من الحروب والعداء

والثأر فيما بينهم، يقتل بعضهم بعضاً، وتحكمهم أعراف بشرية ناقصة، وعادات متوارثة.

وجاء الإسلام لبناء تلك الأمة العربية الممزقة، بتعاليم الإسلام الكاملة، فبقي رسول الله ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً مع القوّة الناعمة وحدها، يعرض لقومه دين الله الحق ومبادئه العادلة، يعرض لهم قوّة جديدة، تنقلهم من الشقاوة إلى السعادة، ومن الضعف إلى القوة، ومن الخصومة والثأر إلى الإخوة والمحبة، ومن الظلم إلى العدل، ومن عوامل الهدم إلى قواعد البناء، قوّة تصنع في نفوس الرجال التضحية والفداء لدين الله، وقد رفض طغاة مكة وعُتاتها الدعوة، وأبت قوتهم الصلبة القبول، وغرّتهم عدّتهم وسلاحهم، واستخدموا العنف مع المُستجيبين للدعوة، فاضطر المسلمون للهجرة إلى الحبشة، وحُوصِر رسول الله ﷺ وبنو هاشم والمؤمنون به في شعب عامر ثلاث سنوات، وكان الرسول ﷺ

يعرض نفسه، على الوفود الزائرة لمكة؛ عله يجد قُوَّةً صلبةً تناصر قُوَّته الناعمة، وبقي سنوات صعبة في مكة يكابد عناد قومه وعتادهم، إلى أن صار اللقاء التاريخي بين الأنصار ورسول الله ﷺ، وجرى الاتفاق بين القَوَّتَيْنِ الناعمة والصلبة، وتمَّت البيعة الأولى، ثم البيعة الثانية، ومن تلك الليلة المباركة؛ أي بيعة العقبة الثانية، بدأ تُشكَلُ القَوَّتَيْنِ؛ إذ عاد الأنصارُ إلى المدينة، وتتابع المهاجرون في الرحيل من مكة إلى المدينة، ثم جاء الإذن الرباني للرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة، وما أن غادر الرسول بيته في جنح الظلام، إلا وهبَّت قريش بعتادها ومالها تُلاحق رسول الله ﷺ، ويتسابق فرسانها وشبابها للبحث عنه، وأنى لهم ذلك!، فقُوَّةُ الله غالبية، ونصره حاضر ﴿إِلَّا نُنْصِرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ فَأَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُ يُجْنَدُونَ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ  
 كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ  
 هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

وما أن وصل رسول الله ﷺ للمدينة، إلا ونشأت دولة  
 النبوة والراشدين، واتحدت القوتان؛ الناعمة، والصلبة،  
 ونمت الدولة واتسعت، وفي سنوات وجيزة اختفت قوَى  
 عُظْمَى، وصارت المهابة والعظمة للإسلام ودولته.



### ٣. البداية

هناك في المدينة المنورة، كانت بدايةُ عملِ القُوتَيْن، فقد كان الرسول ﷺ يدعو قومه في مكة وزوارها للخير والرشاد، يدعوهم بالكلمة الطيبة، وبالتي هي أحسن، وكان للكلمة والفصاحة شأنهما وقوتهما، وجاءهم ﷺ بالقرآن بكلام الله المعجز والقوة الناعمة الكاملة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۚ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

كتابٌ عزيزٌ معصومٌ كاملٌ، تنزيلٌ من الله ذي العزة والجلال!

وقد بهر القرآنُ العربَ بإعجازه، ولقي الرسول ﷺ الأذى

من قومه في مكة ثلاثة عشر عامًا، إلى أن استجاب له الأنصار، فكانت بيعة العقبة الأولى، ثم بيعة العقبة الثانية، وتكونت القوتان، ومن ثم صارت الهجرة إلى المدينة المنورة، وهناك في المدينة قامت دولة الإسلام الأولى، ونشأت دولة الكمال والعدل والنموذج الأمثل، دولة العلم والسيف، وكان شأن القوتين وقرارهما في يد رسول الله ﷺ، وهو المعصوم الذي كمله الله وأيده.

ومن ذلك الوقت تأسست القوتان: الناعمة، وهي الإيمان الذي يبني النفوس ويصنع الرجال، الإيمان الذي احتواه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. والقوة الصلبة هي سيوف الأنصار ورماحهم، ومعهم المهاجرون الأخيار، وفق ما ورد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

لقد تناولت الآية سبب إرسال الرسل، وإنزال الكتب ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، وإقامة العدل يتطلب حمل الناس عليه، وردعهم عن الجور والظلم، ومن ثم ظهرت في المدينة المنورة القوتان وامتزجتا، وصارتا جسداً واحداً، وهناك نشأت القوة الجديدة، التي غيرت وجه التاريخ، وحيّرت الخصوم، وشرعت في إقامة العدل، وبدأ الكيد لها من يهود المدينة، فعملوا على تفريق القوتين وإضعافهما، وتكوّن النفاق وعُرف المنافقون، وصار الحقد والخوف من القوة الناعمة التي اختص الله بها المسلمين، ولا زال المكر والكيد لقوة المسلمين الناعمة يتجدد ويتنوع.

وبعد وفاة الرسول ﷺ كان للعلماء الشأن في القوة الناعمة، وللسياسيين الشأن في القوة الصلبة، وتلازمت القوتان ردحاً من الزمن.

هذا وإن القوة الصلبة لجميع الشعوب واحدة، أسها الحديد، وتتفاوت الأمم في النوع والكم والكيف

والمتانة، والإعداد والابتكار، أمّا القوّة الناعمة القادمة من السماء، فيتميز بها المسلمون عن غيرهم؛ هي قوة إيمانية سماوية، تبني الجندي المسلم ذاتياً، فقد جعل الإسلام الموت في سبيل الله دفاعاً عن دين الله وعن وطن المسلم شهادة، أمّا غير المسلمين فموتهم تضحية وفداء، وفرق بين الدافعية هنا وهناك.

وصل الجيش الإسلامي الذي سيره رسول ﷺ نحو مؤتة، وصل بقوّته الناعمة والصلبة، وهناك في اللقاء صارت المعركة، وحين رأى البطل جعفر بن أبي طالب قائده زيد بن حارثة يخرّ صريعاً، التقط الراية على الفور، ومضى ورجاله يلاطمون أمواج البشر المتدافعة نحوهم، ويشتد الضغط على المسلمين، فيصمد الإيمان؛ النصر أو الشهادة، لا خيار ثالث، ويزداد الضغط الرومي، فيقفز جعفر من على صهوة جواده يقود الجيش، وفي لمح البصر يعقر فرسه الشقراء، ويعلو تكبيره، وتتجاوب حناجر المسلمين بالتكبير،

فتهتَزُّ الأَرْضُ وترتجُ تكبيراً وإقداماً! ويثبت القائد المسلم ورجاله، ويجالدون الأعداء ويجندلون الخصوم. إنها الشجاعة والجرأة، ومهارة القائد وإقدامه، ينحر فرسه، ويثبت على الأرض يتحدى. أيُّ شجاعةٍ وأيُّ فداءٍ بعد هذا العمل! إنها شجاعة تعجز الأقلام عن وصفها! وأيُّ يقينٍ بعد هذه التضحية، وأيُّ تحدٍّ بعد تلك القفزة ونحر الجواد؟! إنها القوة الناعمة التي جاء بها الإسلام، فأنجحت هؤلاء الأبطال.

لقد ملأ اليقين قلب جعفر، وفاض الإيمان غزارة، وبدا الثبات من القائد ورجاله كالجبال الرواسي، بل أثبتَ وأجرأ من كلِّ ما يخطر على البال؛ مئة ألف من الروم، ومن نصارى العرب مئة ألف أخرى، يتصدى لهم ثلاثة آلاف مقاتل، يقودهم حسب وصية رسول الله ﷺ زيد بن حارثة، فإن أُصيبَ فجعفرُ بن أبي طالب، وإن قُتلَ جعفرُ فعبُدُ الله بن راحة.

إن القوم بقائدهم، يتسابق القادة نحو الموت، يفترسون الأعداء افتراسَ الأسدِ لفرائسها.

ويثبت القائد جعفر بعد قتل القائد السابق زيد، ويتكاثر الروم عليه ويصيبون يده، فتطير تلك اليد الطاهرة، وما كأنه أصيب، فيمسك الراية بيده الأخرى، ويمضي يزارُ ويجندل الخصوم، ويتتابع المهاجمون عليه، وتلحق يده الثانية بأختها، فما اهتز ولا جَبُن، احتضن الراية بحضنه، ومضي يشق الصفوف وحوله الأسد الضواري، يَفْرُونَ الأعداء فرياً، وخصومهم يتقافزون يَمَنَةً وَيَسْرَةً، وتتحامى الضباع، وتتكاثر الوحوش، وتتمكن رماحهم من قتل جعفر، فيخرُّ سريعاً قد أَعذر إلى ربِّه، يسقط وقد ناله أكثر من تسعين طعنة في نحره وصدره، ويرون جسده الطاهر فيما بعد وقد كانت الضربات بشطره الأمامي، وما مس الكفرة خلفه بطعنةٍ ولا وخزة، لقد كان مقبلاً عليهم بوجهه، وما استطاعوا مخالطته وضربه من الخلف ولو بضربةٍ واحدة، إنها الجرأة والصرامة العجيبة.

يقول عبدالله بن عمر: كُنْتُ فِيهِمْ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ،  
فَالْتَمَسْنَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَوَجَدْنَاهُ فِي الْقَتْلِ،  
وَوَجَدْنَا فِي جَسَدِهِ بَعْضًا وَتَسْعِينَ مَا بَيْنَ طَعْنَةٍ وَرَمِيَةٍ.  
وَمَا أَنْ تَفِيضُ رُوحَ جَعْفَرَ إِلَى بَارِئِهَا، إِلَّا وَمَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ  
تَتَلَقَّاهُ، وَيَصْطَفُّ لَهُ جَنَاحَانِ يَطِيرُ بِهِمَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ،  
وَيَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْمَشْهُدَ فِي مَوْتِهِ بِالْأُرْدُنِّ، وَهُوَ فِي  
الْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ عَلَى بَعْدِ مِائَاتِ الْأَكْيَالِ، يَرَى ﷺ جَعْفَرَ  
بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ فَازَ الْفُوزَ الْحَقَّ، وَنَالَ الثَّوَابَ الْفُورِي  
وَالْجِزَاءَ الْأَوْفَى، وَيُطْلَقُ عَلَيْهِ لِقَبِ الطَّيَّارِ، وَأَنْعَمَ بِهِ مِنْ  
لِقَبِ حَقِيقِي، يَطِيرُ مَعَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى الْفَرْدُوسِ الْأَعْلَى!  
وَيَأْخُذُ الرَّايَةَ حَسَبَ وَصِيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، عَبْدُ اللَّهِ  
بْنُ رِوَاحَةَ، وَيُقَاتِلُ حَتَّى اسْتَشْهَدَ، إِلَى أَنْ يَأْخُذَ الرَّايَةَ  
خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَقَدْ أَدْرَكَ خَطُورَةَ الْمَوْقِفِ فَأَعَادَ  
تَنْظِيمَ الْجَيْشِ، وَبَدَّلَ الْمَيْسِرَةَ بِالْمَيْمَنَةِ، وَاسْتَدَارَ بِالْقُوَّةِ  
الْقَلِيلَةِ، وَجَعَلَ قِسْمًا مِنَ الْمُقَاتِلِينَ يَتَقَدَّمُونَ مِنَ الْخَلْفِ،

وكأنهم أمداد جديدة، فأربك الروم، وانسحب خالد بالجيش المسلم، وأنقذه بعد أن أثنى في الروم، وكان عدد قتلى المسلمين ثلاثة عشر شهيداً.

هذا ومن معجزات الرسول ﷺ أنه أخبر الصحابة باستشهاد القادة الثلاثة، وعيناه تذرغان الدموع، قبل أن يأتيه الرسول بالخبر، فقد صح عن أنس رضي الله عنه :  
 أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبْرُهُمْ، فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ، ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ». وَعَيْنَاهُ تَذْرِغَانِ: «حَتَّى أَخَذَ الرَّايَةَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup> فقاد خالد الجيش، وأنقذ المسلمين.

وروى البخاري في صحيحه عن إسماعيل قال: حَدَّثَنِي قَيْسٌ قَالَ: سَمِعْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ يَقُولُ: «لَقَدْ دُقَّ فِي

(١) أخرجه البخاري (١٤٣/٥ رقم ٤٢٦٢).

يَدِي يَوْمَ مُؤْتَةٍ تَسْعَةُ أَسْيَافٍ، وَصَبَرْتُ فِي يَدِي صَفِيحَةً  
لِي يَمَانِيَّةٌ»<sup>(١)</sup>.

هذه القوة الجديدة التي جاء بها الإسلام، ناعمة تصنع الأبطال، وتعرض المعجزات. فعندما قابل الصحابي ربعي بن عامر رستم قائد الفرس في معركة القادسية، وقد تزيّن بقوته الناعمة الخارجية؛ زينوا مجلسه بالنمارق المذهّبة والزرابي الحرير، وأظهر اليواقيت واللالئ الثمينة، والزينة العظيمة، وعليه تاجه، وغير ذلك من الأمتعة الثمينة، وقد جلس على سرير من ذهب، مظاهر تخدع العين، لكنها عند اللقاء واهية! ودخل ربعي مجلس رستم بقوته الناعمة الذاتية الداخلية، بشخصيته التي صنعها الإسلام، بثياب صفيقة، وسيف وترس، وفرس قصيرة، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط، ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد،

(١) أخرجه البخاري (١٤٤/٥ رقم ٤٢٦٦).

وأقبل وعليه سلاحه ودرعه وبيضة على رأسه.

فقالوا له: ضع سلاحك.

فقال رباعي: إني لم آتكم، وإنما جئتكم حين دعوتموني،  
فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت. فقال رستم: ائذنوا  
له. فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق فخرق عامتها،  
فقالوا له: ما جاء بكم؟

فقال رباعي: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة  
العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها،  
ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه  
إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه،  
ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى  
موعود الله.

قالوا: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن  
بقي.

فقال رستم: قد سمعت مقاتلكم، فهل لكم أن تؤخروا  
هذا الأمر حتى ننظر فيه وتظنروا؟

قال: نعم، كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟

قال: لا، بل حتى نكتب أهل رأينا ورؤساء قومنا.

فقال ربيعي: ما سن لنا رسول الله ﷺ أن نؤخر الأعداء  
عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم،  
واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل.

فقال رستم: أسيدهم أنت؟

قال ربيعي: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير  
أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه، فقال:  
هل رأيتم قطُّ أعزَّ وأرجحَ من كلام هذا الرجل؟

فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع  
دينك لهذا الكلب! أما ترى إلى ثيابه؟!

فقال: ويلكم لا تتظنروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي

والكلام والسيرة، إن العرب يستخفون بالثياب والمأكل،  
ويصونون الأحساب<sup>(١)</sup>.

وذاك البطل عقبة بن نافع، عندما انطلق لملاقاة الروم،  
قالت له زوجته: أين أجِدُك يا عُقبَة إذا حمي الوطيس؟  
قال لها بثقة وعزّة: ستجديني في خيمة قائد الروم أو  
الجنة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ  
مَنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ، وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظَرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]  
هذه نماذج القوّة الناعمة التي يخشاها أعداء الإسلام،  
وهذه هي القوّة الناعمة، وقصّة بدايتها عند المسلمين.



(١) البداية والنهاية: عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير  
القرشي الدمشقي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي،  
بالتعاون مع مركز البحوث والدارسات العربية والإسلامية بدار  
هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م (٦٢١/٩ - ٦٢٢).

## ٤. العدل!

العدل شأنه عظيم، فأعظم شهادة في كتاب الله المنزَّل  
 نصَّت على أن الله جلَّ جلاله قائم بالعدل ﴿شَهِدَ اللَّهُ  
 أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ  
 إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

بالعدل تُعْمَرُ الْأَرْضُ، ويعيش البشرُ الْأَمْنُ وَالطَّمَأْنِينَةَ،  
 وتقوم الحياة التي أرادها الله لبني آدم، فالله قائمٌ  
 بالقسط؛ أي بالعدل، ويريد سبحانه أن تقوم حياة البشر  
 بالقسط، فأرسل رسله، وأنزل كُتُبَهُ الْمُقَدَّسَةَ ليقوم  
 النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ  
 الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيُقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وكلمة قيام في القرآن: تعني الحياة والحركة؛ فالكعبة

جعلها الله قياماً للناس ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]. والله سبحانه وتعالى له العزة ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾، فهو الحي القيوم.

وأرسل الله رسله وكتبه ليقوم الناس بالقسط؛ أي تقوم حياتهم وتتشكل جماعاتهم بالعدل، ويتطلب إقامة العدل في أي مجتمع: قوّة تجمعهم وتسوسهم، والقوّة التي يتحقق بها القسط قوتان؛ روحية، وجسدية، داخلية تبني النفوس وتحجزها عن الظلم، وخارجية تصنع الجيوش وتحمي الثغور، وتمنع الجور. وأدوات القوتين؛ العلم غذاء العقول، والحديد سلاح الأجساد، والعلم مصدره كُتِبَ اللهُ المقدسة، والسلاح مصدره الحديد، وكلا المادتين جاءت من السماء. ثم إن قيام الله بالعدل يُوجبُ على كل فردٍ من بني آدم أن يقوم بالعدل، ويلتزم بالعدل، ويعيش العدل. لقد كرّم الله ابن آدم، فنفخ فيه من روحه، فنال الشرف والفضل على جميع المخلوقات:

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ ۗ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ  
وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩٠].  
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ  
مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾  
[الإسراء: ٧٠].

إن التفضيل الرباني للبشر يفرض عليهم طاعة الله  
المتفضل بالخلق والشرف، فيتصف كل فرد بما أحبه  
الله، وبما وصف به نفسه، فيكون عادلاً في كل أحواله.  
عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيْمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ:  
«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ  
مُحْرَمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَن  
هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَن  
أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا  
مَن كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ  
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي

أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرْيَ فَتَضُرُّونِي،  
وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ  
وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى اتَّقَى قَلْبِ رَجُلٍ  
وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ  
أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ  
رَجُلٍ وَاحِدٍ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ  
أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ  
فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ  
مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيْطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ،  
يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِّيْكُمْ  
إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ  
ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ»<sup>(١)</sup>. وفي رواية: «إِنِّي حَرَمْتُ  
عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي، فَلَا تَظَالَمُوا»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (٤/١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤/١٩٩٥ رقم ٢٥٧٧) (٥٥).

وتتابع الآيات القرآنية الأمرة بالعدل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].  
 نُصُوصٌ مُقَدَّسَةٌ، تُقَدِّسُ الْعَدْلَ وَتُزْرِعُهُ فِي النُّفُوسِ،  
 فَتُعِيشُ الشُّعُوبَ السَّعَادَةَ وَالْحُبَّ وَالْعَدْلَ وَالرِّخَاءَ  
 وَالوُدَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي  
 الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ  
 لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

ويأمر سبحانه بالعدل ولو على النفس والأقارب:  
 ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ  
 أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ  
 أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَعْرِضُوا  
 فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]. وحتى مع الذي  
 تكرهه ولا توده، اعدل معه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا  
 قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ

عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ  
اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿ [المائدة: ٨].

ويأمر الله رسوله ﷺ أن يحكم بالعدل حتى مع هؤلاء  
الفجرة، مع كفرهم، احكم بالعدل ولا تجور عليهم:  
﴿ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَأَحْكُمْ  
بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ  
شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ  
الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢]. والله يأمر بالقسط: ﴿ قُلْ  
أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ويعرض القرآن الكريم التوجيه الرياني لنبي الله  
داود عليه السلام أن يحكم بالعدل ولا يتبع الهوى قال تعالى:  
﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ  
وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

قال ابن كثير في تفسيره : «هذه وصية من الله عزَّوجلَّ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى من ضلَّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد».

وروى ابن كثير ما رُوي عن ابراهيم أبوزرعة قال : أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيجاسب الخليفة؟ فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت. فقلت: يا أمير المؤمنين أقول؟ قال: قل: في أمان الله، قلت: يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ثم توعدَّه في كتابه فقال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١)

(١) تفسير ابن كثير، سورة ص، آية: ٢٦.

وحتى في القول يجب العدل، فقد أعلى الله سبحانه من شأن العدل وجعله أساس الحياة، وقرن وجوب العدل اللفظي بالعدل العملي، ففي آية واحدة جاء الأمر بالعدل في الحالتين، وذلك بالزجر من أكل مال اليتيم والوفاء بالكيل والعدل اللفظي، حتى ولو كان مع أقرب قريب: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ وَأَوْفُوا بِالْكِيلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّوْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿ [الأنعام: ١٥٢].

نصوصٌ تترى في كتاب الله، تتضمن توجيهات ربانية، تُهدب النفوس البشرية وتبنيها قوةً ناعمةً مباركة، فله الشكر والمِنَّة.



## هـ. الحدود الشرعية

جاء الإسلام لإسعاد البشرية، ونزل القرآن الكريم؛ ليكون منهج الحياة، ومصدر الأحكام، ووردت فيه الحدود الشرعية والأمر بوجوب تنفيذها؛ ليعيش المجتمع العدل والأمان والطمأنينة. ومن متطلبات التنفيذ وجود ولاية عامة تتوفر لها القوة الصلبة؛ قوة الحديد والسيف، تحكم بين الناس بالعدل، وتحمل المجتمع على العدل، وتردع عن الظلم والبغي، وشرع الله القصاص ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرِّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَىٰ بِالْأُنْثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأْتِبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

بيّن سبحانه الحكم في القتل العمد، وأذن بالعفو والتنازل، وحث عليهما، وعقّب في الآية اللاحقة على

أن في القصاص حياة؛ إذ تهدأ النفوس وتكف عن  
 الثأر والمزيد من سفك الدماء ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ  
 يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وتناول القرآن النفس البشرية بكاملها وأجزائها  
 ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ  
 وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ  
 قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ  
 يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

كتابٌ كاملٌ جاء بالأحكام الكاملة التي بها تُعمَّرُ  
 المجتمعات، ويسودُّ العدل، وتتحقَّقُ القوَّةُ وبقاء الدولة.

هذا وفي التعدي على الأموال خلل اجتماعي، ومن  
 ثمَّ عداواتٌ وخلافاتٌ وغبنٌ وقهرٌ وجورٌ؛ ولذا جاء  
 الزجر عن السرقة واختلاس الأموال، وبيان الحدِّ في  
 السرقة ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا  
 كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨].

عن عروة بن الزبير: أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ، فَضَرَعَ قَوْمُهَا إِلَى أُسَامَةَ ابْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَ، قَالَ عُرْوَةُ: فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا، تَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدِّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ؟» قَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطِيبًا، فَأَتَتْهُ عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا». ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا، فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَارْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ<sup>(١)</sup>.

وبين القرآن أنه لولا القوة الصلبة القاهرة وردع

(١) أخرجه البخاري، (٥/١٥١ رقم ٤٣٠٤)، ومسلم (٣/١٣١٥ رقم ١٦٨٨).

الظالم لفسدت الأرض: ﴿ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ  
بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ  
عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ثم إن تنفيذ الحدود يستوجب قوّة قاهرة؛ سيف  
مرهوب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا  
أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ  
الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ  
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٣].

إذاً في تنفيذ الحدود ملمحٌ للقوتين الناعمة والصلبة؛  
فالتشريع الربّاني والتفصيل القرآني في تنفيذ الحدود  
خيرٌ مثال؛ النفس بالنفس، والعين بالعين، والسِّنُّ  
بالسِّنِّ، والجروحُ قصاص، والسارقُ تُقَطَّعُ يده، والزاني  
والزانية يُجلدان، حدودٌ تضمّنها القرآن، وأمرٌ بتنفيذها،  
والتنفيذ يتطلّب سلطاناً يحكم ويُنفذ بقوته الصلبة  
حدود الله، فيتحقّق العدل، وتسود الطمأنينة.

## ٦. العِزَّةُ وَالِاسْتِقْلَالُ

القُوَّةُ النَّاعِمَةُ فِي الْإِسْلَامِ تَصْنَعُ الْعِزَّةَ، وَتَمْنَعُ الذِّلَّةَ:  
 ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ  
 يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥].

وَمَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ أَعَزَّهُ وَنَصَرَهُ، فَلَا يَحْزَنُ حَتَّى لَوْ أَصَابَهُ  
 ضَعْفٌ وَوَهْنٌ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ  
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

إِنَّهُ الْقُرْآنُ فِيهِ الشِّفَاءُ لِكُلِّ دَاءٍ، تَنْزَلُ آيَاتُ الطَّمَأْنِينَةِ،  
 فَلَمَّا صَارَ لِلْعَدُوِّ الْغَلْبَةُ، فَتَلَكَ حَالُ الدُّنْيَا الَّتِي أَرَادَهَا  
 اللَّهُ: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ<sup>٤</sup>  
 وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
 وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً<sup>٥</sup> وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وهي الدنيا ابتلاءً وتمحيص: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا  
الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾  
[آل عمران: ١٤٢].

وتضع القوّة الناعمة المنهج في التعامل مع المخالف  
في المعتقد، فلا ولاءً له، ولا ثقةً فيه، بل نهى وزجر:  
﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

لكن حين تكون القوّة الصلبة لذاك المخالف غالبيةً فلا  
مانع من مصانعته ومداراته، قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ  
الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ  
فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ وَيُحَذِّرْكُمْ  
اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

يُحذِرُ الله في هذه الآية من موالاته الكفار واتخاذهم أصدقاء  
وأولياء، إلا أن تكون لهم القوّة والغلبة، فيُصادقون ظاهراً  
لا باطناً؛ مداراةً ودفعاً لشرهم، لكن يجب الحذر منهم.

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، آية العِزَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ: «نَهَى اللَّهُ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُوَالُوا الْكَافِرِينَ، وَأَنْ يَتَّخِذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ يُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، ثُمَّ تَوَعَّدَ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾؛ أَي: مَنْ يَرْتَكِبْ نَهَى اللَّهِ فِي هَذَا فَقَدْ بَرِيَّ مِنَ اللَّهِ كَمَا قَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ءَأَتْرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النِّسَاءُ: ١٤٤].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المَائِدَةُ: ٥١].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ثَلُفْتُمْ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ﴾ إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [المُتَّحِنَةُ: ١].

وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ ذِكْرِ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ

الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ  
إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾  
[الأنفال: ٧٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾؛ أَي: إِلَّا مَنْ خَافَ  
فِي بَعْضِ الْبُلْدَانِ أَوْ الْأَوْقَاتِ مِنْ شَرِّهِمْ، فَلَهُ أَنْ يَتَّقِيَهُمْ  
بِظَاهِرِهِ لَا بِيَاطِنِهِ وَنِيَّتِهِ، كَمَا حَكَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي  
الدَّرْدَاءِ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا لَنَكْشِرُ فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ وَقُلُوبِنَا  
تَلْعَنُهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لَيْسَ التَّقِيَّةُ  
بِالْعَمَلِ إِنَّمَا التَّقِيَّةُ بِاللِّسَانِ، وَكَذَا رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ عَنْ ابْنِ  
عَبَّاسٍ: إِنَّمَا التَّقِيَّةُ بِاللِّسَانِ، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَأَبُو  
الشَّعْتَاءِ وَالضَّحَّاكُ، وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ. وَيُؤَيِّدُ مَا قَالُوهُ،  
قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا  
مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ

(١) أخرجه البخاري تعليقاً في صحيحه (٣١/٨).

صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾  
[النحل: ١٠٦].

وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: قَالَ الْحَسَنُ: التَّقِيَّةُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (١).  
ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أَي: يُحَذِّرُكُمْ  
نِقْمَتَهُ؛ أَيِ مُخَالَفَتِهِ وَسَطْوَتِهِ فِي عَذَابِهِ لِمَنْ وَالَى أَعْدَاءَهُ  
وَعَادَى أَوْلِيَاءَهُ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أَي:  
إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمُنْقَلَبُ، فَيُجَازِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ (٢).

هذا وبعدُ، فآيات القرآن الكريم تتكرر في النهي والزجر  
عن الركون لليهود والنصارى وموالاتهم واتخاذهم أولياء،  
وَيُشْنَعُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى ذَوِي الْمِيلِ نَحْوَهُمْ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ  
ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ  
مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وحين ينهى الله عن موالاتهم ليعني عداوتهم ﴿لَا يَنْهَكُمْ

(١) أخرجه البخاري (١٩/٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٢/٣٠-٣١).

اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِنُوا لَكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا  
إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ  
وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ  
هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩]

إن الله يُريدُ لعباده المؤمنين العزة والقوة والمنعة،  
وعدم الركون لليهود والنصارى، ووصف سبحانه  
المسارعين لليهود والنصارى بمرضى القلوب، وفي  
هذا الوصف الرباني تشنيعٌ وتحذيرٌ: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي  
قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ۚ فَعَسَىٰ  
اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِيهِ  
أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢].

وبهذه النصوص الربانية تتمكن القوة الناعمة من  
النفوس المؤمنة بالله، وتسري في دمائهم، وتُوصِّلُ فيهم  
العزة والمنعة.



## ٧. قِيمُ الْبِنَاءِ

جاء القرآن بفيض من القيم الخالدة البانية للمجتمع المسلم، وتلك هي -لعمركم الله- القوة الحقة، لقد أمر الله بالتثبت مما يُقال ويُسمع: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِيٍّ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

وأكد القرآن الأخوة الإسلامية، وللأخوة حقوقها: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وجاء الأمر الرباني بالإصلاح بين الإخوة، فليس الإصلاح شأنٌ خيارى، بل أمرٌ تجبُّ المسارعة لعلاجه، فالمؤمنون إخوة.

ثم الحذر كل الحذر من القول الجارح، تقول العرب:  
 جُرِحَ السِّنَانُ وَلَا جُرْحَ اللِّسَانِ، إن جُرِحَ اللسان يزرع  
 الكراهية، ويورث العداوة والقطيعة، وجاء القرآن بحفظ  
 اللسان من السخرية ومن كل كلمة نابية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ  
 ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً  
 مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا  
 بِأَلْسِنَتِكُمْ بِاللَّسْمِ الْفُسُوقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ  
 هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وثمة صفات تمرق البيوت، وتفرق المجتمع، وتزرع  
 الوهن، نهى القرآن عنها، وتلك قوة أخلاقية وميزة  
 قرآنية؛ لقد نهى القرآن عن الظن السيئ، وعن  
 التجسس والغيبة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ  
 إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا يَأْتِيكُمُ  
 أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ  
 اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولأهمية تماسك المجتمع وقوّته، ونبذ ما كان سائداً في الجاهلية من الفخر بالأحساب والأنساب؛ بين القرآن أن الأعلى منزلةً عند الله هو الأتقى؛ فالتفاخر الذاتي داءٌ يُمرِّق المجتمع، ويزرع الوهن، ويشحن الكراهية: ﴿يَكَايُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۗ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۗ﴾ [الحجرات: ١٣].

لقد تضمّن القرآن الكريم الكثير من القيم الخالدة، وجاء القرآن متمماً لمكارم الأخلاق؛ فبتلك القيم تتكون الأخوة، وتقوى المحبّة، ويسود الصفاء، وتصبح القوّة الناعمة ذات شأن، يقول رسول الله ﷺ: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ حُسْنَ الْأَخْلَاقِ»<sup>(١)</sup>.

ويقول ﷺ عن حلف الفضول في الجاهلية: إذ توافق

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٩٠٤ رقم ٨)، وأحمد (١٤/٥١٢-٥١٣

رقم ٨٩٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (رقم ٢٧٢).

عليه بنو هاشم وبنو تيم وبنو زهرة؛ حيث تعاهدوا فيه على أن: « لا يُظلم أحدٌ في مكة إلا ردّوا ظلامته ». وقد شهد النبي محمد ﷺ ذاك الحلف قبل بعثته وله من العمر عشرون سنة، وقال عنه لاحقاً: « لَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ عُمُومَتِي حِلْفًا فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ مَا أُحِبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لَأَجَبْتُ »<sup>(١)</sup>.

ولما جيء بسبايا بني طيء إلى المدينة المنورة، وأدخل السبي على النبي ﷺ دخلت مع السبايا سفانة بنت حاتم الطائي، وكانت امرأة عيطاء لعساء عيناء. -والعيطاء: هي الطويلة المعتدلة بين النساء، واللعاء: جميلة الفم والشفتين، والعيناء: واسعة العينين- فعجب الحاضرون من حسنها وجمالها، فلما تكلمت نسوا حسنها وجمالها؛ لحلاوة منطقتها وجمال فصاحتها.

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى (٥٩٦/٦ رقم ١٣٠٨٠)، وفي معرفة السنن والآثار (٣٠٤/٩ رقم ١٣٢٣٢)، وفي دلائل النبوة (٤٠/٢).

ولما دخلت وقابلت رسول الله ﷺ قالت: يا محمد... هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي الأعداء من قبائل العرب، فإنني ابنة سيّد قومه، وإن أبي كان يُحبُّ مكارم الأخلاق، وكان يُطعمُ الجائع، ويفكُّ العاني، ويكسو العاري، وما أتاه طالبُ حاجةٍ إلا وردهُ بها معززاً مكرماً. فقال النبي ﷺ: «من والدك؟ ومن وافدك؟». قالت: والدي حاتم بن عبدالله الطائي، ووافدي أخي عدي بن حاتم، وكان عدي قد فرَّ الى الشام بعد هزيمة قبائل بني طيء أمام المسلمين في السنة التاسعة من الهجرة، ثم تنصّر هناك، والتجأ إلى ملك الروم، فقال ﷺ: «فأنت ابنة حاتم الطائي؟». قالت: بلى. فقال ﷺ: «يا سفانة هذه الصفات التي ذكرتيها إنما هي صفات المؤمنين»، ثم قال لأصحابه: «أطلقوها كرامة لأبيها؛ لأنه كان يحب مكارم الأخلاق». فقالت: أنا ومن معي من قومي من السبايا والأسرى؟

فقال ﷺ: «أطلقوا من معها كرامة لها ولأبيها»، ثم قال ﷺ: «ارحموا ثلاثاً، وحقّ لهم أن يُرحموا: عزيزاً ذلّ من بعد عزّه، وغنياً افتقر من بعد غناه، وعالماً ضاع ما بين جهال».

فلما سمعت سفانة ورأت هذا الخلق الكريم، الذي لا يصدر إلا من قلب كبير ينبض بالرحمة والمسؤولية، قالت وهي مطمئنة: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. وأسلم معها بقية السبي من قومها، وأعاد رسول الله ﷺ ما غنمه المسلمون من بني طيء إلى سفانة، ولما تجهزوا للرحيل، قالت سفانة: يا رسول الله، إن بقية رجالنا وأهلنا صعدوا إلى صياصي الجبال؛ خوفاً من المسلمين، فهلاً ذهب معنا وأعطيتهم الأمان حتى ينزلوا ويُسلموا على يديك فإنه الشرف؟ فقال ﷺ: «سأبعث معكم رجلاً من أهل بيتي يحمل إليهم أمانى». فقالت: من هو يا رسول

الله؟ قال: علي بن أبي طالب. ثم أمر النبي ﷺ أن يجهزوا لها هودجاً مبطناً، تجلس فيه معززة مكرّمة، وسيّرها مع السبايا من قومها، ومعهم علي بن أبي طالب حتى وصلوا إلى منازل بني طيء في (جبل أجأ)، ونادى علي بن أبي طالب بأمان رسول الله بأعلى صوته حتى سمعه كل من في الجبل، فنزلت رجال طيء وفرسانها جماعات وفرادى إلى الوادي، فلما وقعت أبصارهم على نسائهم وأبنائهم وأموالهم، وقد عادت إليهم بكوا جميعاً، والتفوا حول الإمام وهم يرددون الشهادتين، فلم يمض ذلك اليوم إلا ودخلت كل قبيلة بني طيء في الإسلام، ثم بعثت سفانة إلى أخيها عدي تخبره عن عفو رسول الله ﷺ وكرمه وأخلاقه، وحثته على القدوم إلى المدينة المنورة، ومقابلة النبي الكريم محمد ﷺ، والاعتذار منه، والدخول في الإسلام، فتجهز عدي من ساعته، وقصد المدينة، ودخل على رسول الله ﷺ وأسلم على يديه الشريفتين، ثم عاد

الى قومه معزَّزًا مكرَّمًا، وصار بعد ذلك من خيار المسلمين<sup>(١)</sup>.

هذه المُعاملة النبوية السمحة جعلت من رجال طيء قُوَّةً تضحيةً وفِداءً، ويقيم الإسلام الخالدة تُبنى المجتمعات المتماسكة المتراحمة المتعاونة.

وعرض القرآن الكريم الكثير من قيم البناء؛ الأمانة، والعدل، وحفظ الحقوق المالية، ورعاية الأيتام والفقراء، وحقوق الجار .



(١) أخرج القصة البيهقي مختصرةً في دلائل النبوة (٣٤١/٥)، وفي شعب الإيمان (٣٧٣/١٠) رقم (٧٦٤٩)، وانظر: الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ (١٨٠/٨).

## ٨. أمُّ كُجَّةٍ!

جاء القرآن لبناء المجتمع المسلم وتماسكه، ومن ثمَّ قُوَّتَه ووحْدَتَه، وفي العدل وإعطاء الحقوق لأهلها؛ طيبة للنفوس، ورضا القلوب. وتلك القوَّة والصلابة! كان العرب في الجاهلية يظلمون المرأة، ويحبسون حقوقها، وهي النصف الثاني في كل مجتمع، وذاك خللٌ ومرضٌ في بناء الأسرة.

لقد جاء دينُ الله الكامل بالعدل في الأحكام الكاملة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وتلك القواعدُ هي القوَّة الناعمة في كل بيئة، ومن تلك القواعد البانية الحقوق المالية والعدل في توزيعها،

وقد جاء القرآن الكريم بكل ما فيه صلاح المجتمع  
وطمأنينته واستقراره.

تُوفي أوس بن ثابت الأنصاري، وترك امرأة يقال لها  
أمُّ كُجَّة، وثلاث بنات له منها. فقام رجلان هما ابنا  
عم الميِّت ووصياه سويد وعرفجة، فأخذا ماله، ولم  
يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا  
يورثون النساء ولا الصغار، وإن كان الصغير ذكراً، وإنما  
كانوا يورثون الرجال، ويقولون: لا نعطي إلا من قاتل  
وحاز الغنيمة، فجاءت أمُّ كُجَّة فقالت: يا رسول الله،  
إن أوس بن ثابت مات، وترك عليّ بنات، وأنا امرأته،  
وليس عندي ما أنفق عليهن، وقد ترك أبوهن مالاً  
حسناً، وهو عند سويد وعرفجة، ولم يعطيانني ولا  
بناتي شيئاً، وهنّ في حجري، لا يطعمن ولا يسقين،  
فدعاهما رسول الله ﷺ، فقالا: يا رسول الله، ولدها  
لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاً، ولا ينكأ عدواً، فأنزل

الله عَزَّجَلَّ قوله تعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ  
وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا  
قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرٌ نَّصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء: ٧].

قال البغوي في تفسيره: " (لِلرِّجَالِ) يعني: للذكور من  
أولاد الميت وأقربائه (نَصِيبٌ) حظٌّ (مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ  
وَالْأَقْرَبُونَ) من الميراث، (وَلِلنِّسَاءِ) للإناث منهم (نَصِيبٌ  
مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ) أي: من المال،  
(أَوْ كَثُرَ) منه (نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) نُصِبَ عَلَى الْقَطْعِ،  
وقيل: جعل ذلك نصيباً فأثبت لهن الميراث، ولم يُبين  
كم هو، فأرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة لا  
تفرقا من مال أوس بن ثابت شيئاً، فإن الله تعالى جعل  
لبناته نصيباً مما ترك، ولم يبين كم هو حتى أنظر ما  
ينزل فيهن، فأنزل الله تعالى بعد هذه الآية قوله تعالى:  
﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ  
كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً

فَلَهَا التَّصْفُ<sup>ج</sup> وَلَا بَوِيهٍ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ  
كَانَ لَهُ، وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ  
كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةِ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ  
ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ  
مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ [النساء: ١١].

وعند ذلك أرسل رسول الله ﷺ إلى سويد وعرفجة:  
«أَنْ أَدْفَعِ إِلَى أُمِّ كُجَّةَ الثُّمَنِ مِمَّا تَرَكَ وَإِلَى بَنَاتِهِ التُّلُثِ،  
وَلَكَمَا بَاقِيَ الْمَالِ»<sup>(١)</sup>.

قال الشيخ ابن عثيمين عند تفسيره قوله تعالى:  
﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾<sup>ج</sup>:  
«الوصية هي: العهد لأمر مهم عهد به إليك؛ أي: أنه

(١) تفسير البغوي= معالم التنزيل في تفسير القرآن: محيي السنة،  
أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبدالله  
النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة  
للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م (١٦٩/٢)، وانظر: أسباب نزول  
القرآن: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي،  
النيسابوري، الشافعي، تحقيق: عصام بن عبدالمحسن الحميدان،  
دار الإصلاح، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م (ص ١٤٣).

عهد إليك بشيء مهم، هذه الوصية، وتكون بعد الموت،  
وأما ما قبل الموت فهي وكالة».

وينبغي أن يُعلمَ أن المتصرفَ في غير ماله له أوصاف  
بحسب الوظيفة التي هو قائم بها، فتارة نسميه وكيلًا،  
وتارة نسميه وليًا، وتارة نسميه ناظرًا، وتارة نسميه  
وصيًا، فإذا كان يتولى مال غيره بغير إذن منه بل بإذن  
من الشرع، فإنه يسمى وليًا كولي اليتيم، وإذا كان يتولى  
مال غيره بعد موته، فإنه يسمى وصيًا، وإذا كان يتولى  
الوقف، فإنه يسمى ناظرًا، وإذا كان يتولى لحي، فإنه  
يسمى وكيلًا.

﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أصل الوصية العهد  
بالأمر المهم.

و(الأولاد) جمع (ولد)، ويشمل الذكور والإناث بدليل  
قوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ يعني: إذا اجتمع في  
الأولاد ذكور وإناث، فإننا نعطي الذكر مثل حظ الأنثيين.

وتأمل كيف جاءت العبارة ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ دون أن يقول: للأنثى نصف الذكر؛ لأن الحظَّ والنصيب فضلٌ وزيادةٌ، والنصفُ نقص؛ فلهذا قال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾، ولم يقل: للأنثى نصف ما للذكر؛ لما في كلمة (نصف) من النقص بخلاف (حظَّ) ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ فإن فيه زيادة، فهو أحسن تعبيراً مما لو قال: للأنثى نصف ما للذكر»<sup>(١)</sup>.

هذه الأحكام والتعابير الكاملة جاءت من السماء، فبنت المجتمع المسلم، وعرضت للبشرية نظام عدلٍ مُحكمٍ جديد، فكانت دولة النبوة والراشدين في المدينة المنور، نموذجاً فريداً، دولة فعَّلت القوتين فغيَّرت وجه التاريخ، وعرضت للبشرية ما يجب أن تكون عليه.

(١) تفسير القرآن الكريم «سورة النساء»: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م (٦٤/١).

## ٩. الوعد الرباني

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

إقامة كتب الله كما نزلت من السماء بركة وعزة ومنعة، وعدل واستقرار ونعمة، واليهود والنصارى خالفوا وحرفوا ما جاءهم من الله، فما كانت لهم قوة نفسية غالبة، ولا مجتمع العدل والخير والطمأنينة.

وحين التزم المسلمون بكتاب الله في صدر الإسلام كانت لهم الغلبة والقوة، لقد أوجد الإسلام نفوساً تحب الموت، كما يحب غيرهم الحياة، فكانت لهم الغلبة والنصرة ﴿وَلْيَنْصُرَكَ اللَّهُ مِنْ نَّصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ووعَدَ اللهُ مُقِيمِي تَعَالِيمِهِ وَأَحْكَامِهِ بِالْغَلْبَةِ وَالتَّمْكِينِ،  
فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا  
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ  
الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

ورأينا آثار العمل بالقوة الناعمة في بلادنا المملكة  
العربية السعودية، فله الشكر مكن سبحانه فصارت  
الوحدة، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله؛ لا شرك، ولا  
خرافة، بل صفاء معتقد، وصلاح مجتمع، قال تعالى:  
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ  
فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ  
لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا  
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ  
فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

لله الشكر، صار الاستخلاف لحكامنا كابراً عن كابر،  
وارتفعت راية الدين، وتحقق إخلاص العبادة لله وحده،

وَنفَذتُ حُدُودَ اللهِ، فَصَارَ الأَمْنُ فِي كَافَةِ مَنَاطِقِ المَمْلَكَةِ، وَعَاشَتِ وَتَعِيشُ الأَمْنُ وَالأَطْمَأنِينَةُ، وَمُنذُ تَأْسِيسِ المَمْلَكَةِ وَرَايَةِ القُوَّتَيْنِ مَرْفُوعَةٍ، وَلِكُلِّ رَايَةٍ اِخْتِصَاصِهَا وَقَادَتِهَا، فَالْعُلَمَاءُ يَتَبَادَلُونَ الأَدْوَارَ فِي رَفْعِ رَايَةِ القُوَّةِ النَاعِمَةِ، وَتَفْضِيلِ بَرَامِجِهَا، وَالعَسْكَرِيُّونَ لِهِمُ القُوَّةُ الصَّلْبَةُ فِي مَخْتَلَفِ القَطَاعَاتِ الأَمْنِيَّةِ، يَرَعُونَ أَمْنَ الوَطَنِ وَيَحْفَظُونَهُ، وَيُزَوِّدُونَ عَن حِمَاةِ، وَالمَلُوكِ مِن آلِ سَعُودٍ لِهِمُ القِيَادَةُ وَالقَرَارُ وَالقَوْلُ الفِصْلُ، مُسْتَهْدِينَ بِشَرَعِ اللهِ وَسُنَّةِ رِسُولِهِ ﷺ، وَبِذَلِكَ فَالْمَمْلَكَةُ العَرَبِيَّةُ السَعُودِيَّةُ مَا هِيَ إِلاَّ اِمْتِدَادٌ لِدَوْلَةِ الإِسْلَامِ الأُولَى فِي المَدِينَةِ المَنُورَةِ، أَعْمَلتِ القُوَّتَيْنِ النَاعِمَةَ وَالصَّلْبَةَ.

ذَكَرَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ شَاكِرٌ فِي كِتَابِهِ (رِسَالَةٌ فِي الطَّرِيقِ إِلى ثِقَافَتِنَا) مَا نَصَهُ: «مَضتِ السَّنُونُ وَتَوَلَّى العُثْمَانِيُّونَ زِعَامَةَ العَالَمِ الإِسْلَامِيِّ، وَفِي ٢٠ جَمَادِي الآخِرَةِ عَامِ ١٨٥٧هـ، ١٤٥٢م دَخَلَ الخَلِيفَةُ العُثْمَانِيُّ مُحَمَّدُ الفَاتِحُ القُسْطَنْطِينِيَّةَ حِصْنَ المَسِيحِيَّةِ الشَّمَالِيَّةِ الشَّامِخِ المَنِيعِ، وَغَبَرَ مَا غَبَرَ،

ودخلت دار الإسلام في سنةٍ لذيذةٍ أورشتها نشوة النصر المؤزَّر، ودخلت أوربة كلها في عزيمةٍ حاسمةٍ لتردَّ عن عرضها العار، وبلغ السيل الزُّبى، فكانت يقظةٌ محسوسة في جانب، وغفوةٌ لا تُحسُّ في جانبٍ، وشال الميزان، وانطلقت الأساطيل الأوربية تُطوِّق دار الإسلام من أطرافها البعيدة، فإذا دارُ الإسلام محصورة في الجنوب، بعد أن كانت حاصرةً للمسيحية في الشمال، وشيئاً فشيئاً فقدت دار الخلافة في القسطنطينية هيبتها وسيطرتها، وصارت لأوربة هيبةً مرهوبةً وسيطرةً<sup>(١)</sup>.

وتفكك العالم الإسلامي، وغشته غاشية الجهل والخرافة، إلى أن خرج دعاةٌ مصلحون كان منهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب، اتفق مع الإمام محمد بن سعود عام ١١٥٩هـ، وكان ما كان من يقظةٍ بنيت المملكة خير بناء، وبقيت المملكة منذ تأسيسها رافعة راية القوة الناعمة، فصار لها التطور والتَّمكُّن والتَّمكِين.

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: أبو فهر محمود محمد شاكر،

## ١٠. الفوز بالأفضلية

أكرمَ اللهُ أُمَّةَ الإسلامِ بالقرآن؛ كتابه المقدس، فصنع  
النفوسَ الرِّبَّانيةَ، ونزلَ بالتعاليمَ البانيةَ للشخصيةِ  
المسلمةِ، وجاءَ بنصوصه المِعْجزةِ، فهذَّبَ النفوسَ،  
وعرفَ المسلمَ الحلالَ والحرامَ، والمحبوبَ والمكروهَ،  
وتسابقَ المؤمنونَ يتحسسونَ الفاضلَ والأفضلَ،  
والحسَنَ والأحسنَ!

وصارَ كُلُّ يَتَمَنَى الأفضليَّةَ في كُلِّ شَيْءٍ؛ في حياته  
ومماته، ومن أهمِّ الأُمْنِيَّاتِ؛ الميَّةُ الحسنَةُ، فالحيَّةُ  
الحقَّةُ، والحيَّةُ الأبقَى هي ما بعدَ الموتِ، والموتِ  
خوفِ، والفراقِ أَلَمِ. والموتُ هو الأَمْرُ الحتميُّ،  
والجميعُ مُوقنونَ به، والموتُ هو الشَّيْءُ الَّذِي نَهْرَبُ  
منه، فنجدُهُ أماننا.

وطالما أن الموت بهذا اليقين، فكيف ننال أفضل حالات الموت، ونفوزُ بما بعد الموت؟ وكيف الطريق لتلك الأفضلية؟

لو أقسم لك رئيس الدولة أو مُفتيها أو مَنْ تثقُ به، حول أمرٍ من الأمور لصدَّقْتَهُ، فكيف بقَسَمِ الله سبحانه وتعالى، لقد أقسم الله عَزَّجَلَّ بأن الموت في سبيل الله خيرٌ ميتةً، يقول تعالى: ﴿وَلَيْنِ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٍ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾<sup>١٥٧</sup> وَلَيْنِ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿

[آل عمران: ١٥٧-١٥٨].

هذه هي القوَّة الناعمة التي تصنع الأبطال، ويتسابقون للموت في سبيلها لينالوا الأفضلية. قال الشوكاني: المقصود في الآية: «بيان مزية القتل، أو الموت في سبيل الله، وزيادة تأثيرهما في استجلاب المغفرة

والرحمة»<sup>(١)</sup>.

وقال الشيخ ابن سعدي: «أخبرَ تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه نقصٌ ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه المتنافسون؛ لأنه سبب مفضٍ وموصلٍ إلى مغفرة الله ورحمته، وذلك خيرٌ مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً إذا ماتوا أو قُتلوا بأيِّ حالةٍ كانت، فإنما مرجعُهم إلى الله، ومآلُهم إليه، فيجازي كلًّا بعمله، فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصمٌ إلا الاعتصام بحبل الله؟»<sup>(٢)</sup>. هذا ما ذكره علماء التفسير حول هذه الآية.

- (١) فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط ١، ١٤١٤هـ (١/٤٥١)، وانظر: فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، قدّم له وراجعته: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م (٢/٣٦٢).
- (٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ص ١٥٤).

إن هذه الآية وآيات أخرى صنعت من الصحابة رجالاً رَخَصَتْ نفوسُهُم في سبيل الله، فكانوا قُوَّةً فاقت كل قُوَّة. والمجتمع المسلم عندما يستحضر هذه الآيات، ويتخلقُ بها تزدادُ قُوتهُ وَمَنْعَتُهُ، وبهذا الزاد القرآني يجبُ تربية الجند للدفاع عن أوطانهم، ويحسنُ تلقينهم هذه النصوص الشريفة التي تزيدهم قُوَّةً ومهابة. وقد يكون الموت في سبيل الله طبيعياً، بأن يتوقف قلبُ الساعي في سبيل الله وهو في سفره ومهمته الدعوية. إن الموت أو القتل في سبيل الله خيرٌ من الحياة، وخيرٌ مما يجمعه الناس في الحياة؛ من مالٍ وجاهٍ وسلطانٍ وكل متاع الدنيا، فاحرص أن تستحضر النية، وأن تكون أعمالك في سبيل الله، فإذا حملتَ همَّ الدعوة في سبيل الله، وخدمة دين الله والدفاع عن وطنك، وجاءك الموت وأنت ماضٍ في هذا الهم، وهذه الرسالة، تكن بإذن الله ممن فازوا بالموت في سبيل الله، وتلك قُوَّةٌ ناعمةٌ غالبية!

لقد نزلت هذه الآيات بُعيد غزوة أحد؛ تسليّةً للمجاهدين وحثًا للجهاد والدفاع عن دين الله، فكان هذا الوعد الرباني الشريف للمجاهدين في سبيل الله المدافعين عن دين الله، ووعدُ الله باقٍ وخالدٌ إلى يوم القيامة. والجهادُ في سبيل الله ليس بالسيف وحده، وإنما هو بكلِّ الوسائل.

يقول الشيخ ابن عثيمين في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: «أي: في الجهاد في سبيله، ويحتمل أن يكون أعمّ من ذلك، بمعنى: قُتِلْتُمْ في سبيل الله في الجهاد، أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله في الدعوة إليه، أو قُتِلْتُمْ في سبيل الله في بيان الحق، كل هذا داخلٌ في سبيل الله. الجهادُ؛ جهاد الكفار، الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، الدعوة إلى الله، بيان الحق؛ لأن الجامع بينها أن هذا قُتِل وهو يدافع عن دين الله عَزَّجَلَّ، فالذي يُقتل في سبيل

الله يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ خير من الدنيا وما فيها»<sup>(١)</sup>.

ومما قاله الشيخ كذلك: «يحتمل أن يكون المعنى أعم من الجهاد في سبيل الله بالسلاح، ليشمل الجهاد في سبيل الله بالدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ والعلم، فمن قُتل لكونه داعية فإنه مقتول في سبيل الله؛ لأنه كالمجاهد بسلاحه.

وقوله: ﴿أَوْ مِتُّمَّ﴾ يعني دون أن تُقتلوا في سبيل الله، ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا كلها، ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن؟ لكم: ﴿مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾ لكم أيضاً.

والفرق بين المغفرة والرحمة: أن المغفرة بها زوال

(١) تفسير القرآن الكريم «سورة آل عمران»: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٥هـ (٢/٣٥٧).

المكروه، والرحمة بها حصول المطلوب؛ أي أنكم يحصل لكم مطلوبكم، وتتجون من مرهوبكم، والمغفرة هي ستر الذنب والتجاوز عنه، والرحمة صفة من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، لكنها تقتضي الإحسان إلى المرحوم والإنعام عليه. وفي قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ إضافة المغفرة إلى الله تدل على عظمة هذه المغفرة؛ وذلك لأن الشيء يعظم بعظم باذله، فمثلاً إذا قلت: أعطاني الملك عطية، وقلت: أعطاني الصعلوك عطية، الصعلوك من هو؟ الفقير. ماذا يتصور الناس إذا قلت: أعطاني الملك عطية؟ أنها كثيرة. أعطاني الصعلوك عطية؟ أنها خمس وعشرون هللة، قليلة، فالشيء يَعُظَّم بحسب ما يضاف إليه؛ فهذا قال: ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ﴾؛ أي ابتداءً منها، فهو الذي يبتدئ بها عَزَّوَجَلَّ ويتفضل بها.

﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني: منه ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أو ﴿خَيْرٌ

مِمَّا تَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا كلها»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير القرآن الكريم «سورة آل عمران»: محمد بن صالح العثيمين،

هذا وبعد، فيا أخي في الله، تنبّه، فالقرآن نورٌ وضياءٌ،  
وهدايةٌ ورشادٌ، وبناءٌ للمجتمعات المسلمة بناءً نقيًا قويًا.

أخي، استيقظ من غفلتك وأسرع لنيل الأفضلية، ولا  
تجعل طلب الدنيا وحدها مُبتغاك وهدفك! تدبّر وفكّر  
واعمل خادمًا لدين الله وللموت في سبيله!

احذر التسويف والتأجيل، وإمضاء وقتك في طلب  
الدولار والريال، وتزجية الوقت والاستمتاع بلذات الدنيا  
ومتاعها، فالرحيل حتمي.

سابق غيرك، وكُن صاحب رسالة سامية وهمٌ ديني،  
فالله يندبك ويخبرك ويُقسم لك، فهل يا ترى تستجيب!  
فلا أصدق من وعدِ الله.

أسرعْ أسرعْ لعمل الصالحات، وكل يوم سائل نفسك: ما  
هي الأعمال الصالحة التي قُمت بها؟ واجعل نيتك الموت  
في سبيل الله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

سَكُنْدُ خَلُهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِيدِينَ فِيهَا  
أَبْدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿ [النساء: ١٢٢].

أصلح نفسك أولاً، وراقب ذاتك، عن عبدالله بن عمر  
قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ  
عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ  
فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا  
رَاعِيَةٌ وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ  
وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». قال: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: «وَالرَّجُلُ  
رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ»<sup>(١)</sup>.

تأمل، كيف أنت ورعاية بيتك ورقابة أبنائك؟ فذاك  
من العمل الصالح.

أنفق في سبيل الله، فلك الأضعاف المضاعفة من  
الحسنات ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري (٤/٥ رقم ٢٧٥١)، ومسلم (٣/١٤٥٩ رقم ١٨٢٩).

كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ  
يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿ [البقرة: ٢٦١].

إِيَّاكَ وَالْإِمْسَاكَ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَدْ تَوَعَدَ  
اللَّهُ الْبَخْلَاءَ بِقَوْلِهِ: ﴿هَذَا نَسَمٌ هَتَوَلَّاءٌ تَدْعُونَ لِئِنْفِقُوا فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ  
نَفْسِهِ ۗ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا  
غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿ [محمد: ٣٨].

وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَجَالَهُ رَحْبٌ؛ فَمَنْ الْإِنْفَاقِ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ دَعَمَ الْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ الْمُصْرَحِ لَهَا بِالْعَمَلِ فِي  
الدَّعْوَةِ، وَرِعَايَةَ الْأَيْتَامِ، وَحِفْظَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالرِّعَايَةَ  
الصَّحِيَّةَ، وَدَعْمَ بَرَامِجِ التَّعْلِيمِ، وَإِعَانَةَ الْمُعْسَرِينَ، وَغَيْرَهَا.  
وَاحْذَرِ الصَّدَّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا تَسْتَهِنْ بِذَلِكَ ﴿ الَّذِينَ  
يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنِ  
سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿ [إبراهيم: ٣].

إِيَّاكَ وَالْجِدَالَ وَالْكِبْرِيَاءَ وَالتَّعَالِيَّ ضِدًّا مَا هُوَ فِي سَبِيلِ  
 اللَّهُ، تَبَّهَ فِي قَوْلِكَ، احذِرْ مَالَاتِ رَأْيِكَ ﴿ وَمَنْ النَّاسِ  
 مَنْ يُجَدِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ ٨ ثَانِي  
 عِطْفِهِ، لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ، فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ  
 الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ [الحج: ٨-٩].

إِيَّاكَ وَالسَّخْرِيَّةَ مِنَ الْعَامِلِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، احذِرْ  
 هَذَا الطَّرِيقَ: ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ  
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ  
 مُهِينٌ ﴾ [لقمان: ٦].

لَا يَأْخُذُكَ الْهَوَى نَحْوَ هَذَا، وَالْكَرَاهِيَّةُ تُجَاهَ ذَلِكَ،  
 فَتَسْخَرُ مِثْلًا مِنْ أَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ مِنْ نَاهٍ عَنْ مُنْكَرٍ  
 فَتَضِلُّ، لَقَدْ حَذَّرَ اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مَنَا جَمِيعًا، حَذَّرَ  
 سَبْحَانَهُ نَبِيَّهُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: ﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا  
 جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى

فِيضِلُّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ  
شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ [ص: ٢٦].

إنَّ في القرآن الآيات الكثيرة النادرة نحو العمل في  
سبيل الله. رزقنا الله نُورَ البصيرة.

وبهذه التعاليم القرآنية الناعمة الطرية تتحقق قُوَّةُ  
المجتمع، وينتشرُ السلام والحب، إنَّه كتاب الله مائدةٌ  
عدلٍ وحياة.



## ١١. الجمال والقوة الناعمة

القوة الناعمة تبني المجتمع المسلم، وهي خاصة بالمسلمين، والمرأة ناعمة رقيقة في تكوينها. وخلقتها نعومة في نعومة، وكما ندب الله الرجال للجهاد المسلح؛ للقوة الصلبة، ندب النساء وهنّ الناعمات للحفاظ على نعومتهم وصيانتها بالقيم النبيلة؛ فلكل قوة اختصاصها ومجالها، ولكل من الرجل والمرأة طبيعته وتكوينه.

والجمال والزينة مطلب بشري، الكل ينشد الجمال ويتجمل!

والمرأة هي موضع الزينة، وحولها يتمحور الجمال، والحسناء فتنة الرجال، قدّم الله فتنتها على المحبوبات

الأخرى: ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ  
وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ  
الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

والمرأة جُبلت على التَّحْسُنِ والتَّجَمُّلِ، فهل ترك القرآن  
للمرأة حرية التصرف في جمالها؛ إظهاره أو إخفاؤه؟  
لقد ضبط القرآن كلَّ شيء، ونظَّم كلَّ شيء: ﴿ وَنَزَّلْنَا  
عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى  
لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

لقد اهتم القرآن بأهم عناصر بناء المجتمع وصلاحه؛  
بالمراة وانضباط سلوكها وحشمتها، وذاك شأن من  
شؤون القوَّة الناعمة.

أُختاه اقرئي القرآن تجدي الهداية، وافحصي ذاتك وإبداء  
تجمُّلك، تعلّمي كيف التوجيه الرباني نحو إظهار الجمال

وإخفائه، لقد ضبط القرآن الزينة وأرشد، فمتى تتجمل المرأة وتُظهر زينتها؟، ومتى تُخفي جمالها وتحجبه؟ قال تعالى: ﴿وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّبَاعِيْنَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].

ولتعلّمي -أختاه- كيف يصونُ الله سبحانه جمالك عن نظرات الرجال الأجانب، ويحفظها من نزغات الشياطين، فقد نهى سبحانه عن تحريك الرجل وإظهار الصوت؛ لجلبِ النظرات لزينتك ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

نهى القرآن الكريم عن تحريك القدم؛ لكيلا تُلْفِتَ أنظارَ

الرجال للزينة الخفية، فكيف بمن تتعطر وتجمّل وجهها بمساحيق التجميل، وتنتشر شعرها، وتبدي محاسنها للأغراب؟! أين هي من هذا النصّ القرآني ﴿وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾؟!١٩

أما العين وسهامها فقد أمر الله باتقائها بغضّ البصر عن المحرّمات، فخاطب المؤمنين بقوله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]. نسأل الله العون على غضّ البصر.

كما أمر الله النساء بغضّ البصر أيضاً، فقال تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

[النور: ٣١].

وفي هاتين الآيتين الأمرتين بغضّ البصر للرجال والنساء، ورد الأمر بحفظ الفرج، فبين البصر والفرج كهرباء واشتعال لغريزة قيدها الله، وضبطها الإسلام، فلا تهيجّها ببصرك ونظراتك الشهوانية.

والجَنَّةُ ونعيمُها؛ جاء الوصف بأن فيها قاصرات الطرف،  
وهنَّ الحيات غير المتبرجات ﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِرَتُ الْأَطْرَفِ  
عَيْنٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ  
يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصفات: ٤٨-٥٠]

وتكرر ورود قاصرات الطرف في القرآن الكريم  
﴿ وَعِنْدَهُمْ قَصِرَتُ الْأَطْرَفِ الْأَرْبَابُ ﴿٥٢﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ  
الْحِسَابِ ﴾ [ص: ٥٢-٥٣].

أي نعم قاصرات الطرف طاهرات ﴿ فِيهِنَّ قَصِرَتُ الْأَطْرَفِ  
لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ  
﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: ٥٦-٥٨].

وهنَّ متمنعات من البروز للأعين، محفوظات لأصحابهنَّ  
﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾  
لَمْ يَطْمِئِنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴿٧٤﴾ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾  
مُتَّكِعِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٢-٧٦].

إِذَا الْحَيَاءُ، وَطَأْطَأَ الرَّأْسَ، وَحَجَزُ النَّظَرِ، وَالْبُعْدُ عَنِ  
مُخَالَطَةِ الرِّجَالِ؛ مِيزَاتٌ جَذِبَ لِلنِّسَاءِ؛ فَمَنْ نَعِيمَ الْجَنَّةِ  
نِسَاءً بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

وَابْتَدَأَ نَبِيَّ اللَّهِ شَعِيبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ وَرَدَنَ مَاءَ مَدْيَنَ  
بِمَاشِيَّتِهِنَّ، كَفَكَفْنَ الْمَاشِيَّةَ عَنِ وِرْوَدِ الْمَاءِ؛ كَيْ لَا يُخَالَطَنَّ  
الرِّجَالَ، وَاعْتَذَرْتَا عَنِ مَجِيئِهِمَا لِمَجْمَعِ الرِّجَالِ بِأَنَّ  
وَالدَّهْنَ شَيْخٌ كَبِيرٌ، لَا يَسْتَطِيعُ الْحُضُورَ وَسُقْيَا الْمَاشِيَّةَ  
﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ  
وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا  
نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

وَيَتَطَوَّعُ نَبِيُّ اللَّهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَتَقَدَّمُ وَيُزَاحِمُ  
الرِّجَالَ وَيُخَالَطُهُمْ، وَيُسْقِي مَاشِيَّةَ الْبَنَاتَيْنِ، وَتَعُودُ  
الْبَنَاتَانِ وَتُخْبِرَانِ وَالدَّهْمَا خَبَرَ مُوسَى، وَيَبْعَثُ الْأَبُ  
إِحْدَى الْفَتَاتَيْنِ، فَتَأْتِي إِلَيْهِ وَهِيَ حَيَّةٌ يَحْجِزُهَا الْحَيَاءُ

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىٰ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ۞ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ، وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَبَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ [القصص: ٢٤-٢٥]. ۞

ابنتا النبي شُعيب عليه السلام وفي البرية مع الماشية؛ لا زينة، ولا تجمل، ومع ذلك تكففان الأنعام عن السُّقيا، ولا يُخالطن الرجال، وتعود إحداهنَّ وقد غلبها الحياء والستر؛ لنداء نبي الله الساقى موسى عليه السلام!

ويحسم القرآن الكريم لباس المرأة وسترها ﴿ يَأْتِيهَا الَّتِي قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَنَّ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۞ [الأحزاب: ٥٩]. ۞

ففي هذه الآية يأمر الله زوجات النبي ﷺ وأمهات المؤمنين وبناته ونساء المؤمنين بلبس الجلباب.

قال ابن منظور في لسان العرب: «الجلباب: هو: الرِّداءُ؛ وقيل: هو كالمِقْنَعَةِ تُعْطَى به المرأةُ رَأْسَهَا وظَهرَها وَصَدْرَها، والجمع جَلَابِيبٌ»<sup>(١)</sup>.

وعن أم سلمة قالت: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ خَرَجَ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِهِنَّ الْغُرَبَانَ»<sup>(٢)</sup>.

قال صاحبي: خرجت امرأتان من سكنهما، المرأة الأولى كاشفة وجهها مبدية حسنها، وقد تكون قد سرحت شعرها وأظهرته، وأبدت نحرها ولمعته، وبدت كالغذاء المكشوف الغطاء، تتساقط عليه صغار الحشرات، التي لا تُرى بالعين المُجَرِّدة، وقد يمر به الذباب على عجل!

(١) لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، الحواشي: لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ (١/٢٧٣)، مادة: جلب.

(٢) أخرجه أبو داود، (٤/٦١ رقم ٤١٠١)، وصححه الألباني.

والمرأةُ الثانية، ارتدت الجلباب وغطت به جسمها، ولم تظهر مفاصلها ولا شيئاً منها، فيا ترى أيُّ المرأتين تجذب أنظار الرجال؟

وأيُّ الالشتين تؤذيها نظرات الفتيان؟

وأيُّ منهما تلاحقها أحداق المارة؟

وأيهما تتأذى من فضول الأبصار؟

ولو كان مع أي من المرأتين محرّمٌ يرافقها فكيف هي حالته، وهو يرى الأبصار تلاحق عرضه وحرمه، ربّما تعارك مع ذاك الناظر، وذاك الآخر الذي يُخالس عرضه النظر؟ لقد اهتم القرآن ببناء المجتمع وتماسكه وانضباط الأسرة وحشمتها.

لقد وضع الله في الآية وبين ذلك الأذى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفَ فَلَا يُؤْذِنَ﴾، فذات الجلباب سلمت من الأذى، وردّ الحجابُ عنها فضولَ النظرات، فكانت غذاءً محفوظاً نظيفاً، بعيداً من الأذى، سليماً من القذى!

إن الجلباب يحجب محاسن المرأة؛ فبه تحجب المرأة إثارة غرائز الرجال الجنسية، فتهدأ النفوس، وتبردُ الغرائز، ويعيش المجتمع الطمأنينة، وتخسُ الشياطين، وتتجمدُ الشهوات.

لقد كان التوجيه الرباني لزوجات الرسول ﷺ ولبناته، وهُن ذوات المقام الطاهر، والحصانة الشريفة، فكيف بنساء المؤمنين مع تعاقب العصور، وضعف الوازع الديني؟! إن ارتداء الجلباب توجيهٌ إلهيٌّ، نصَّ عليه القرآن الكريم، والله سبحانه وتعالى هو الخالق والعالم بأحوال النفوس البشرية، وكيف تفتنُ محاسنُ المرأة الرجال، والجلبابُ هو الوسيلة المثلى لمنع الأذى، ومن ثمَّ صلاح المجتمع وطهارته وطمأنينته.

وفي الآية ملمحٌ آخر، فقد أشرك الله الرجل في مسؤولية ارتداء محارمه الجلباب، قال تعالى: (وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ)

لم يقل (والمؤمنات)، ولا (النساء المؤمنات)، وإنما جاء النص الرباني، بقوله تعالى: (وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ)؛ أي محارمك أيها الرجل، ليرتدين الجلباب، وحين يُنبه الله الرجل لهذا، فذاك يعني مسؤولية ومُحاسبة.

قال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «في قوله تعالى: ﴿وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ دليل على أن الرجال قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ، وإلا لاكتفى بقوله: والنساء المؤمنات.

وقوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ لم يقل: على وجوههن، ولا على نحورهن، ولا على صدورهن فيكون شاملاً لجميع البدن.

قال ابن عباس وغيره: تُغَطِّي وجهها ولا تبدي إلا عيناً واحدة تنظر بها للضرورة، وهذا فيما إذا كان الجلباب صفيقاً؛ بحيث إذا غطت به وجهها لا ترى، أما إذا كان خفيفاً فلا حاجة إلى إبداء العين؛ لأن إبداء العين إنما

هو للضرورة؛ بدليل أن الصحابة كابن عباس وغيره رخصوا في إبداء العين الواحدة؛ لأنها بقدر الضرورة وإلا لكانوا يقولون: تُخْرِجُ الْعَيْنَيْنِ جَمِيعًا<sup>(١)</sup>.

وقال ابن عثيمين كذلك: «قال الله تعالى: ﴿يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]؛ لأن الخلل الذي يُسْمَعُ إذا ضربت المرأة برجلها يُخَشَى منه الفتنة، وخشية الفتنة بخلخالٍ مخفي عند ضرب المرأة برجلها أقل بكثير من أن تُخْرِجَ المرأة وجهها، ذلك الوجه الجميل المَجْمَلُ بالكحل والتحمير وغير ذلك، وكلُّ يَعْلَمُ أن هذا أعظم فتنة من خلخالٍ مستورٍ يُسْمَعُ صوته عند الضرب بالرجل، وتأبى حكمة الله عَزَّجَلَّ أن ينهى عن ضرب المرأة برجلها لئلا يُسْمَعَ

(١) تفسير القرآن الكريم «سورة الأحزاب»: محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ (ص ٤٨٢-٤٨٦).

خلخالها، ثم يرخص لامرأة من أجمل النساء أن تُخْرِجَ وجهها وكفَّيها فإن هذا تأباه حكمة الله عزَّجَلَّ»<sup>(١)</sup>.

وقال الشيخ الشعراوي: «شرط في لباس المرأة الشرعي ألا يكون كاشفاً، ولا واصفاً، ولا لافتاً للنظر؛ لأن من النساء مَنْ ترتدي الجلباب الطويل السَّابغ الذي لا يكشف شيئاً من جسمها، إلا أنه ضيقٌ يصف الصدْر، ويصف الأرداف، ويُجسِّم المفاتن، حتى تبدو وكأنها عارية»<sup>(٢)</sup>.

قال محمد بن سيرين: «سألت عبيدة السلماني عن قول الله عزَّجَلَّ: ﴿يُدْنِيكَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبَابِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه، وأبرز عينه اليسرى»<sup>(٣)</sup>.

(١) تفسير القرآن الكريم «سورة الأحزاب»: محمد بن صالح العثيمين (ص ٤٨٨).

(٢) تفسير الشعراوي - الخواطر: محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم (١٩/١٢١٦٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م (٦/٤٨٢).

وجاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صِنْفَانِ مِنَ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا، قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ، وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلَاتٌ مَائِلَاتٌ، رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لَا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلَا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا»<sup>(١)</sup>.

ويمضي القرآن في بناء السلوك المجتمعي الطاهر، والرسول ﷺ قدوة المسلمين، ونساؤه أمهات المؤمنين قدوات النساء عبر العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وتتعاقب الآيات الموجهة الحافظة ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَتَقِيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

ينهى الله نساء النبي ﷺ عن اللين في الصوت فكيف

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٦٨٠ رقم ٢١٢٨).

بغيرهن؟ ويأمرهن الله بملازمة البيت، وينهاهن عن التبرج فكيف بنسائنا: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وعند الحاجة لمخاطبة زوجاته ﷺ وهن الطاهرات يرد التوجيه الرباني: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبْدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

هذه أوامر الله لزوجات الرسول ﷺ، وهن قُدوات نساء المجتمعات المسلمة، ومنهن نتعلم.

ثم إن الدنيا بزِينتها وجمالها إلى انقطاع، فهي ومضة زمنية يسيرة، والآخرة هي المُستقر والجمال الذي

لا انقطاع بعده ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا  
وَزِينَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: ٦٠].

هذه التوجيهات الربانية للمرأة المسلمة قُوَّةٌ وحصانةٌ  
أخلاقية، وكلُّما انضبط المجتمع سلوكياً كانت قُوَّته  
الناعمة أصلبَ وأمتنَ وأمنع.

ولقد ركَّز أعداء الإسلام على إفساد المرأة، فهي أهمُّ  
عناصر القُوَّة الناعمة، فلنحذِر مداخل الشيطان ومكر  
الخصوم، ونعمل بهدي الله وتعاليمه.



## ١٢. الحقوق المالية!

جاء القرآن الكريم بقُوَّتِهِ الناعمة والخشنة، وتعاليمه السمحة، ليبنى أمة جديدة، يسودها العدل والطمأنينة والسماحة.

وسمى الله هذا القرآن نوراً، والنور ضياء وهداية، يقول تعالى: ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وقد تضمن نور الله آيات كثيرة في الشأن المالي، وحفظ الحقوق المالية؛ فشأن المال في القرآن عظيم؛ حوله تكون الخصومات، ولأجله تنشأ العداوات، وتتقاطع الأرحام، وتضعف الروابط، فالتعدي واختلاس الأموال خَفِيَّةٌ وتحايلاً يزرع الخلاف، ويُمزق البيوت، ويُسْتَتُّ

الأسر، ويضعف المجتمع، ويختل تماسكه ووحدته، ولكي يعيش المجتمع المسلم في حب وقوة وتماسك؛ جاءت النصوص القرآنية الزاجرة عن الظلم، وأكل الأموال بغير حق؛ جاءت نصوص تلجُّ القلوب، وتملؤها خوفاً ومهابة، فاليتيم ضعيف، وماله عرضةٌ للأخذ والتحايل، وجاء القرآن بنصوص زاجرة رادعة مخيفة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْرَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٢].

والحُوب الكبير: قال الزمخشري في تفسيره: هو الذنب العظيم. ومنه قوله عليه السلام: «إِنَّ طَلَّاقَ أُمَّ أَيْوَبَ لِحُوبٌ» فكأنه قيل: إنه كان ذنباً عظيماً كبيراً.

وقال المفسرون: الصَّحِيحُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ مِنْ غَطَفَانَ، كَانَ مَعَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لِابْنِ أَخٍ لَهُ يَتِيمٍ، فَلَمَّا بَلَغَ طَلَبَ

الْمَالِ فَمَنْعَهُ عُمُهُ، فَتَرَجَعَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ آيَةٌ،  
فَلَمَّا سَمِعَهَا الْعَمُّ قَالَ: أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ، نَعُودُ  
بِاللَّهِ مِنَ الْحُوبِ الْكَبِيرِ، وَدَفَعَ مَالَهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:  
«وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ وَيُطِيعُ رَبَّهُ هَكَذَا فَإِنَّهُ يَحِلُّ دَارُهُ»<sup>(١)</sup> أَيِ  
جَنَّتِهِ، فَلَمَّا قَبِضَ الصَّبِيُّ مَالَهُ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ  
النَّبِيُّ ﷺ: «ثَبَّتَ الْأَجْرُ وَبَقِيَ الْوِزْرُ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَقَدْ  
عَرَفْنَا أَنَّهُ ثَبَّتَ الْأَجْرَ، فَكَيْفَ بَقِيَ الْوِزْرُ وَهُوَ يُنْفِقُ فِي سَبِيلِ  
اللَّهِ؟ فَقَالَ: «ثَبَّتَ أَجْرُ الْغُلَامِ وَبَقِيَ الْوِزْرُ عَلَى وَالِدِهِ»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في  
وجوه التأويل: الزمخشري (٤٦٤/١)، مفاتيح الغيب التفسير الكبير:  
أبو عبدالله فخر الدين الرازي (٤٨٣/٩)، اللباب في علوم الكتاب: أبو  
حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي (١٥٢/٦).  
(٢) أسباب نزول القرآن: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي  
الواحدي، النيسابوري (ص ١٤١)، معالم التنزيل في تفسير القرآن:  
محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (١٥٩/٢)، وفي  
الجامع لأحكام القرآن: أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري  
القرطبي: «بقي الوزر على والده لأنه كان مشركاً» (١٣/٥).

هذا وقد هَدَدَ اللهُ المطففين في الكيل والوزن، فقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين: ١-٥]. وأمر سبحانه بالوفاء ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

إنه القرآن بناء ومعزة، وحفظ للحقوق، هو منهج الله الذي أَرَادَهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ.

وينهى الله في القرآن عن الخلاف والنزاع، ويذكر عاقبة الخلاف، والمال من أقوى عوامل الفرقة ومُسَبِّبات النزاع، ولذا جاءت قسمة الموارث بنصوص قرآنية، لا اجتهاد ولا خلاف، لقد حسم القرآن الموارث، وخصص نصيب كل وارث.

وجاءت هذه التفاصيل القرآنية لتحفظ وحدة المجتمع

المسلم وقوته، جاءت مُحذرة من التنازع: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ  
وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ  
مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وفي هذه النصوص الزاجرة والأمرية والنادبة، صلاح  
للمجتمع، وبناء لتمامسكه ووحدته.





## ١٣. يوم التلاق!

نزل القرآن بلسان عربي مُبين، وتضمن أحكاماً ونصوصاً تحفظ للمجتمع المسلم وحدته وقوّته، وتحوّل دون فرقة السوء، وتنازع أفرادها، ووردت آيات قرآنية تُحذر من أخلاق السوء، ومن كل كلمة جارحة، تقول العرب في أمثالها: جرح السنان ولا جرح اللسان.

وتقول العرب: ينسى الصافع ولا ينسى المصفوع! لقد حذر القرآن من السخرية، ومن التنازب بالألقاب، وعاب هذا السلوك وقبحه، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُوا مِن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

والظنُّ السيئُ خلقٌ ذميم، أمر القرآنُ باجتنابه، وزجر عن  
التجسس، وعن الغيبة، فتلك صفات تُضعف المجتمع،  
وتمزق وحدته وقوته: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ  
إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ  
أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ  
اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا:  
المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ  
مِنَ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي  
قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ  
هَذَا، وَضْرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ  
حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ  
أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»<sup>(١)</sup>.

(١) أخرجه مسلم (٤/١٩٩٧ رقم ٢٥٨١).

وحدَرَ القرآنَ ذاكَ الذي يطلقُ لسانه بالظن، فيتهم هذا، ويرمي ذاك، ويلفِظُ بذِيءِ القَوْلِ ظنًّا ووهماً، ونبهه بالبعد عن ذاك الظن السيِّئ، فلدِيه كرامٌ كاتبون ﴿إِذْ يَنْلَقِي الْمَتَلَقِيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ ١٧ ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧-١٨].

وأحسب أن ذاك المُفتري، قد غاب عنه أن كل شيء معلوم لله، ومُدَوَّن عنده ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

ولئن نسي الإنسانُ فالله لا ينسى، فكل عمل وكل قول مدون ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦].

هو القرآن كلام الله بقي خالداً ومعجزة سماوية، تستقيم به حياة المسلمين، وتصفو به معيشتهم، وتتماسك بتعاليمه قلوبهم، وتسودهم المودة، فتزداد قوتهم ومهابتهم، ويرفعهم الله به، اقرأ هذه الوصية

الفردية والأمر الرباني: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ورد في تفسير ابن كثير لهذه الآية: «قال قتادة: لا تقل: رَأَيْتُ، وَلَمْ تَرَ، وَسَمِعْتُ، وَلَمْ تُسْمِعْ، وَعَلِمْتُ، وَلَمْ تَعْلَمْ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلُكَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ»<sup>(١)</sup>.

وَمَضْمُونُ مَا ذَكَرَ الْعُلَمَاءُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَهَى عَنِ الْقَوْلِ بِإِلَاحِ عِلْمٍ، بَلْ بِالظَّنِّ الَّذِي هُوَ التَّوَهُّمُ وَالْخَيَالُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اجْتَبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِتْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ»<sup>(٢)</sup>. وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ: «بِئْسَ مَطِيئَةُ الرَّجُلِ: زَعَمُوا»<sup>(٣)</sup>، وَفِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ: «مَنْ أَفْرَى الْفِرَى أَنْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَ»<sup>(٤)</sup>.

(١) تفسير القرآن العظيم: ابن كثير (٧٥/٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٩/٧) رقم (٥١٤٣)، ومسلم (٤/١٩٨٥) رقم (٢٥٦٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٤/٢٩٤) رقم (٤٩٧٢)، وصححه النووي في الأذكار

(ص ٣٧٩).

(٤) أخرجه البخاري (٩/٤٣) رقم (٧٠٤٣).

هذا وينبه القرآن أن هناك يوم التلاقي، يوم تتلاقى فيه الخلائق، ويبحث كل فرد عن كل حسنة، ويتمنى كل شخص من يحمل عنه ولو سيئة، فهل يا ترى نتذكر ذلك اليوم، ونحفظ ألسنتنا، ونخشى يوم التلاق؟ ❦ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ نُحْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ❦

[غافر: ١٥-١٧].

إن هذه التوبيهات الربانية في القرآن قوّة ناعمة، تحفظ المجتمع المسلم من الوهن، وتزيد قوته قوّة، وتماسكه تماسكاً، وتلك لعمر الله خير قوة وخير وسيلة لبناء المجتمعات السويّة.

إنه كتاب الله خير غذاء، يبني النفوس ويُنير العقول!





## ١٤. الترغيب في الجندية

يبني القرآن النفوس، ويجعل منها قُوَّةً صلبةً لا تهاب الموت، فحين يشعر المقاتل بعظمة مهمته وجزيل أجرها، تزداد شجاعته، ويقوى إقدامه، وليس هناك زاد أصدق من القرآن، ولا توجيه أوثق من القرآن، والقرآن يدفع للشجاعة والثبات يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَنِّلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنَلُونَ وَيُقْنَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

مما ذكره ابن سعدي في تفسيره، قال: «يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعدُّ وعداً حقاً بمبايعة عظيمةٍ

ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿أَشْتَرَى﴾: بنفسه الكريمة ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾: فهي الثمن والسلعة المبيعة، ﴿يَأْتِ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾: التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين من أنواع اللذات والأفراح والمسرات والحوار الحسان والمنازل الأنيقات، وصفة العقد والمبايعة بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه؛ لإعلاء كلمته وإظهار دينه. فيقاتلون ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾: فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات. ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾: التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم وأعلاها وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلُّها اتفقت على هذا الوعد الصادق. ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾: أيُّها المؤمنون، القائمون بما وعدكم الله ﴿فَأَسْتَبَشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به﴾؛ أي: لتفرحوا بذلك وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل؛ لأنه يتضمّن السعادة الأبدية والنعيم المقيم، والرّضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات.

وإذا أردت أن تعرف مقدار الصّفقة؛ فانظر إلى المشتري؛ مَنْ هو؟ وهو الله جلّ جلاله، وإلى العوّض، وهو أكبر الأعواض وأجلّها؛ جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس والمال، الذي هو أحبُّ الأشياء للإنسان، وإلى مَنْ جرى على يديه عقدُ هذا التّبايع، وهو أشرف الرسل، وبأيّ كتاب رُقِم؟ وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق»<sup>(١)</sup>.

وتتعدد آيات بناء القوّتين الناعمة والصلبة، فكثير من النصوص القرآنية تبشر المقاتلين بالأجر العظيم، فتقوى عزائمهم ولا يتهيبون الموت في سبيل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (ص٣٥٢).

الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾  
 فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾  
 يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

وليس ثمة أقوى من القرآن في بناء النفوس، فهو غذاء روعي يدفع المقاتل المسلم للتضحية بنفسه وبذل مهجته، وذاك الفداء وتلك النفوس الصابرة الصادقة، هي المصدر الأساس لقوة المسلمين، هي القوة الناعمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْتَ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمَاتٌ ۗ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وتتابعت آياتُ بناءٍ وتأسيسِ القوَّةِ الناعمةِ عند المسلمين؛ تتابعت آياتُ الجهادِ والحثِّ على الموتِ في سبيلِ اللهِ وبيانِ أفضليتهِ، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن كثير في تفسيره: «هذا إيجابٌ من الله تعالى للجهادِ على المسلمين أن يكفُّوا شرَّ الأعداءِ عن حوزةِ الإسلامِ. وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنصر أن ينصر، وإن لم يُحتجَّ إليه قعد»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (١/٥٧٢-٥٧٣).

وقال ابن كثير كذلك: «ولهذا ثبت في الصحيح: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يَحْدِثْ نَفْسَهُ بِغَزْوٍ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً»<sup>(١)</sup>».

وتعددت آيات القوّة الناعمة التي تحثُّ على الجهاد والندب إليه ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَىٰ تَحَرُّفٍ تُنَجِّكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١].

وقال ﷺ: «مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ، رَجُلٌ مُمَسِّكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَىٰ مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً، أَوْ فَرْعَةً طَارَ عَلَيْهِ، يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مِظَانَهُ»<sup>(٢)</sup>.

وتكوّنت القوّة الناعمة في نفوس الصحابة؛ إذ سمعوها آياتٍ تُتلى، فتلقّوها بقلوبهم، وتسابقوا لميادين الجهاد في سبيل الله، يجودون بأرواحهم رخيصة في سبيل الله،

(١) أخرجه مسلم (١٥١٧/٢) رقم (١٩١٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (١/٥٧٢-٥٧٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٠٣/٢) رقم (١٨٨٩)، ومِظَانُهُ: الموضوع الذي هو فيه.

فذاك أبو جابر عبدالله بن عمرو بن حرام، وقد تقدمت به السنّ يُسرِعُ لداعي الجهاد في معركة بدر، ثم في معركة أحد، يقول ابنه جابر: «لَمَّا حَضَرَ قِتَالُ أُحُدٍ دَعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: إِنِّي لَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَدْعُ أَحَدًا؛ يَعْنِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ بَعْدَ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا، فَاقْضِ عَنِّي دَيْنِي وَاسْتَوْصِ بِأَخْوَاتِكَ خَيْرًا»<sup>(١)</sup>. فلما أصبحنا كان أبي أول قتيلٍ قُتِلَ في أحد، ولما ذهب المسلمون بعد نهاية القتال ينظرون شهداءهم... ذهب جابر بن عبدالله يبحث عن أبيه، حتى لقوه بين الشهداء، وقد مثلَّ به المشركون، كما مثلوا بغيره من الأبطال. ووقف جابر وبعض أهله ليكون شهيد الإسلام عبدالله بن عمرو بن حرام، ومرَّ بهم رسول الله ﷺ وهم يبكونه، فقال «ابكوه أولاً تبكوه، فإن الملائكة لتظللة بأجنحتها» وقال جابر كذلك: لَمَّا قُتِلَ

(١) أخرجه الحاكم (٢٢٤/٣ رقم ٤٩١٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم» وسكت عنه الذهبي. وأبو نعيم في معرفة الصحابة (١٧١٨/٣ رقم ٤٣٤٠)، والبيهقي في سننه الكبرى (١١/١٣ رقم ١٢٨٠٤).

أَبِي جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، أَبْكِ وَيَنْهَوْنِي عَنْهُ،  
وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَنْهَانِي، فَجَعَلْتُ عَمَّتِي فَاطِمَةَ تَبْكِي، فَقَالَ  
النَّبِيُّ ﷺ: «تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تَظْلُهُ  
بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ»<sup>(١)</sup>. ولقد أخبر رسول الله ﷺ

عن والد جابر فيما بعد نبياً عظيماً يصور شغفه العظيم  
بالشهادة. قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: لَقِيَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،  
فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ  
اللَّهِ اسْتَشْهَدَ أَبِي، وَتَرَكَ عِيَالاً وَدِينًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ  
بِمَا لَقِيَ اللَّهُ بِهِ أَبَاكَ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ:  
«مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ  
فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا. فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ. قَالَ: يَا  
رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلُ فِيكَ ثَانِيَةً. قَالَ الرَّبُّ عَزَّجَلَّ: إِنَّهُ قَدْ  
سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجِعُونَ» قَالَ: وَأَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:  
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ  
يُرْزُقُونَ﴾ ١١٩ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ

(١) أخرجه البخاري (٧٢/٢) رقم (١٢٤٤)، ومسلم (١٩١٨/٤) رقم (٢٤٧١).

لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ  
 ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧١].

وَعَنْ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «تُوْفِّي عَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ  
 وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، فَاسْتَعْنَتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَى غُرْمَائِهِ أَنْ يَضْعُوا  
 مِنْ دَيْنِهِ، فَطَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَلَمْ يَفْعَلُوا، فَقَالَ لِي  
 النَّبِيُّ ﷺ: «أَذْهَبْ فَصَنْفُ تَمْرَكَ أَصْنَافًا، الْعُجْوَةَ عَلَى  
 حِدَةٍ، وَعِذْقَ زَيْدٍ عَلَى حِدَةٍ، ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَيَّ»، فَفَعَلْتُ، ثُمَّ  
 أَرْسَلْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَجَلَسَ عَلَى أَعْلَاهُ أَوْ فِي وَسْطِهِ،  
 ثُمَّ قَالَ: «كُلْ لِلْقَوْمِ»، فَكَلْتَهُمْ حَتَّى أَوْفَيْتَهُمُ الَّذِي لَهُمْ  
 وَبَقِيَ تَمْرِي كَأَنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ شَيْءٌ» (٢) (٣).

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠/٥ رقم ٣٠١٠)، وابن ماجه (٦٨/١ رقم ١٩٠)،  
 وصححه ابن حبان في صحيحه (٢٤٣/٤ رقم ٣٣٥٨)، والحديث حسنه  
 الترمذي والألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٦٧/٣ رقم ٢١٢٧).

(٣) رجال حول الرسول ﷺ خالد محمد خالد ص ٢٩٤.

هذا، ومن بعد الصحابة جاد التابعون بحياتهم رخيصة في سبيل الله، وجاد بعدهم آخرون كثيرون!

لقد تسابقوا لميادين الجهاد ملبيين دعوة الله وحثه للجهاد ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٤].

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

إنَّ كتابَ الله بنى تلك النفوس العظيمة، وهو باقٍ خالد، به تُبنى جيوش المسلمين، ومعها ومع القوة الصلبة، تكون المهابة والمنعة.

## ١٥. ثبات الجند

تتنوع النصوص القرآنية في تربية الجند وبناء شخصياتهم القتالية، وهذه التوجيهات الربانية خيرٌ موجهٍ للتربية، فالثبات قوة ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

مما جاء في تفسير ابن كثير، قال: «هذا تعليمٌ من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء، فقال: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ ثبتَ في الحديث الصحيح عن عبد الله بن أبي أوفى، أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا

اللَّهُ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَعَلِمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ  
تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ». ثم قام النبي ﷺ، وقال: «اللَّهُمَّ،  
مُنزِلِ الْكِتَابِ، وَمُجْرِي السَّحَابِ، وَهَازِمِ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ  
وَانصِرْنَا عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>.

عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَتَمَنَّوْا  
لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْبُتُوا  
وَادْكُرُوا اللَّهَ فَإِنْ أَجْلَبُوا وَضَجُّوا فَعَلَيْكُمْ بِالصَّمْتِ»<sup>(٢)</sup>.

وعن زيد بن أرقم، عن النبي ﷺ مرفوعاً، قال: «إِنَّ  
اللَّهَ يُحِبُّ الصَّمْتَ عِنْدَ ثَلَاثٍ: عِنْدَ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَعِنْدَ  
الزَّحْفِ، وَعِنْدَ الْجِنَازَةِ»<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث الآخر المرفوع، يقول الله تعالى:

(١) أخرجه البخاري (٤/٥١ رقم ٢٩٦٥، ٢٩٦٦)، ومسلم (٣/١٣٦٢ رقم ١٧٤٢).

(٢) أخرجه الدارمي في مسنده (٣/١٥٨٤ رقم ٢٤٨٤)، وأصل الحديث في  
الصحيحين، كما في الحاشية السابقة.

(٣) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٥/٢١٣ رقم ٥١٣٠).

«إِنَّ عَبْدِي كُلَّ عَبْدِي الَّذِي يَذْكُرُنِي وَهُوَ مُنَاجِزُ قِرْنِهِ»<sup>(١)</sup>؛

أي: لا يشغله ذلك الحال، عن ذكري ودعائي واستعانتني.

وعن قتادة في هذه الآية، قال: «اقتَرَضَ اللَّهُ ذِكْرَهُ عِنْدَ أَشْغَلٍ مَا تَكُونُونَ عِنْدَ الضَّرَابِ بِالسُّيُوفِ»<sup>(٢)</sup>.

وعن عطاء، قال: «وَجَبَّ الْإِنْصَاتُ وَالذِّكْرُ عِنْدَ الزَّحْفِ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ، قُلْتُ: يَجْهَرُونَ بِالذِّكْرِ؟ قَالَ: نَعَمْ»<sup>(٣)</sup>.

وعن كعب الأحبار، قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَالذِّكْرِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَمَرَ النَّاسُ بِالصَّلَاةِ وَالْقِتَالِ، أَلَا تَرَوْنَ أَنَّهُ أَمَرَ النَّاسَ بِالذِّكْرِ عِنْدَ

(١) أخرجه الترمذي (٥٧٠/٥ رقم ٣٥٨٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٨٥/٢ رقم ٥٥٣)، وحسنه عبدالقادر الأرناؤوط في تحقيقه لأذكار النووي (رقم ٥٨٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١٣/١١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٥١٣/٦ رقم ٣٣٤١٩)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١١/٥ رقم ٩١٣١).

الْقِتَالِ، فَقَالَ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا  
وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١) (٢).

ويأمر بالشجاعة والإقدام، ويحذر من الخوف والتولي  
﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا  
تُؤَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ إِلَّا أَمْتَحَرِّفًا  
لِّقِنَالٍ أَوْ مَتَحَرِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ  
وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥-١٦].

وروى سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ أنه قال:  
«رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ  
جَرَىٰ عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِي عَلَيْهِ رِزْقُهُ،  
وَأَمِنَ الْفِتَانَ» (٣).

هذا الحديث الشريف بيني الجندي المسلم ويدفعه

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٧١١/٥) رقم (٩١٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (٧١/٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٥٢٠/٢) رقم (١٩١٣).

للثبات والتضحية، وهذه هي القوة البانية للجندي المسلم الصانعة للقوة العسكرية الصلبة صناعة ناعمة.

إن هذه الأحاديث الشريفة، فضلاً عما جاء في القرآن، أقوى قوة مؤثرة، فرسولُ الله ﷺ يُخبر أن رباط يوم وليلة - والمُرابطُ في سبيلِ الله تعالى هو الذي يُلازمُ حدودَ بلادِ المسلمين لحراستها، يُرابطُ بنيةً صادقةً وإخلاصٍ لله سبحانه - أفضلُ من أجرِ التَّنْفُلِ والتَّطَوُّعِ بصيامِ شهرٍ وقيامِ ليله بالصلاة، ويُخبرُ ﷺ أن المُرابطَ في سبيلِ الله لو مات على تلك الحال، كتَبَ اللهُ له من ثوابِ العملِ مثلَ ما كان يَعْمَلُه في حالِ رباطه، وَيَسْتَمِرُّ ذلكَ الأجرُ وَيَنمو إلى يومِ القيامةِ، ويُخبرُ أيضاً أن المُرابطَ إذا مات أُجْرِي عليه رِزْقُه إلى يومِ القيامةِ، فَيُكْتَبُ له في كِتَابِ حَسَنَاتِهِ، مع أن الإنسانَ يَنْقَطِعُ عَمَلُه بِمَوْتِهِ، غَيْرَ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَجْرِي لهذا المُرابطِ الأجرَ فَضْلاً منه وَكَرَمًا، فيكونُ عندَ ربِّه

مِنَ الْأَحْيَاءِ الَّذِينَ يُرْزَقُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى:  
 ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ  
 رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، فَأَرَوَاهُمْ فِي حَوَاصِلِ طَيْرِ  
 خُضْرٍ تَأْكُلُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، فَيَطْعَمُ مِنْ طَعَامِ  
 الْجَنَّةِ، وَيَشْرَبُ مِنْ شَرَابِهَا.

وَأَخْبَرَ ﷺ أَيْضًا أَنَّ الْمُرَابِطَ يَأْمَنُ الْفِتَانَ؛ أَي: سَوَّالَ  
 الْمَلَائِكَةِ فِي الْقَبْرِ، أَوْ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَا يَضُرُّانِهِ، وَلَا  
 يُزْعِجَانِهِ. وَقَدْ نَالَ الْمُرَابِطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَمِيعَ  
 هَذَا الْأَجْرِ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ تَقْدِيمِ النَّفْسِ وَالْمَالِ مِنْ أَجْلِ  
 حِفْظِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ. إِنَّهُ الثَّبَاتُ وَفَضْلُ الرِّبَاطِ  
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ.



## ١٦. التمويل العسكري

من أهم عناصر القوّة الصلبة التمويل، وتوفير المال. والجيوشُ القويّةُ عتاداً هي ذاتُ القدرةِ الماليةِ الجيدة! فكيف إذاً يتحقق التمويل؟ لقد عالج القرآن الكريم هذا العنصر المهم في بناء القوّة الصلبة، فحثُّ الأفراد المسلمين على البذل والعطاء، وجاءت الآيات المتعددة تدعو كلَّ مسلمٍ للجود بماله.

لقد وزع القرآن الكريم مسؤوليّة بناء القوّة الصلبة على جميع المسلمين، ولم تنحصر المسؤوليّة في فئة دون أُخرى، ولا في قيادة الدولة، وإنما جاءت التوجيهات القرآنيّة عامّة للتمويل العسكري.

وجاء الحث القرآني لبناء القوّة الصلبة بأوجهٍ متعدّدة:

جاء النَّدْبُ بوعد الله بحفظ المال المبذول ومضاعفته، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١]. ريالك ودينارك بمئة ضعف وأكثر، فلا تتردد في الإنفاق للتمويل العسكري.

وجاء الحثُّ بصيغة المسارعة والمسابقة، فلا تتردد إذا دُعيت للبدل، وتتناقل وتتكاثر ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ لَكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

ووردت الدعوة للتمويل العسكري بعبارات الإغراء والترغيب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُكُمُ عَلَى تَحَرُّةٍ نُجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرَ مَنْ أَلَّهِ وَفَنَحْ قَرِيبٌ وَيَشِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾

[الصف: ١٠-١٣].

ابدلوا أموالكم، ولكم الوعد الرباني بالتجارة الربحية؛ مغفرة الذنوب، ودخول الجنة بأوصافها الجاذبة ونعيمها الباهر، وبالنصر على عدوكم وخذلانته.

وجاء الترغيب في بذل المال التمويني لبناء القوة العسكرية، ببيان أفضلية المسارع في العطاء على الآخر المتراخي دون عذر شرعي ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿[النساء: ٩٥].

وفي آية أخرى ورد التأكيد على المسارعة ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أَوْلِيَّكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِ أَوْلِيَّكَ وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿[الحديد: ١٠].

وتنوع الوعد الإلهي للباذلين مالهم في بناء القوة الصلبة، فجاء بعبارات الإقراض، وفي ذلك حثٌّ وترغيبٌ عظيم، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ مَحْدُودٍ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَأَسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المزمل: ٢٠].

وفي الإقراض الدنيوي ثوابٌ من الله، وأضعافٌ مضاعفة، قال سبحانه: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ، وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

ويأمر سبحانه بالإنفاق في بناء القوة الصلبة وتجهيز الغزاة، وينهى عن التهور والمغامرة، فلا بد من دراسة حالة العدو وقوته والإحسان في المقاتلين، فلا يُزجُّ بهم في التهلكة: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمْ إِلَى

الْهَلَكَةَ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿البقرة: ١٩٥﴾.

وترد الأحاديث النبوية في الحث على تجهيز الغزاة في سبيل الله يقول ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا»<sup>(١)</sup>.

في هذا الحديث يُخْبِرُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، بَأَنْ هَيَّأَ لَهُ أَسْبَابَ سَفَرِهِ، مِنْ مَالِهِ، فَقَدْ غَزَا؛ أَي: لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الْغَازِي نَفْسَهُ، وَإِنْ لَمْ يَغْزُ حَقِيقَةً، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِ الْغَازِي شَيْءٌ.

وكذلك مَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ، بَأَنْ قَامَ مَقَامَهُ فِي إِصْلَاحِ حَالِ أَهْلِهِ، وَعِنَايَتِهِ بِهِمْ، فَلَهُ أَجْرُ الْغَازِي.

هذا والقرآن مليءٌ بآيات البذل والدعوة لبناء القوّة الصلبة، وفي توجيهه الله مسؤولية التمويل على الأفراد،

(١) أخرجه البخاري (٤/٢٧ رقم ٢٨٤٢)، ومسلم (٣/١٥٠٦ رقم ١٨٩٥).

إشارةً لأهمية التمويل، وأنه مسؤولية الجميع، ومن ثم تُبنى القوة الصلبة وتتعاظم هيبة المسلمين.

ريالِكُ ودينارِكُ بمئةٍ ضعفٍ وأكثر، فلا تتردّد في الإنفاق للتمويل العسكري.

لقد جاء الحثُّ بصيغةِ المسارعة والمسابقة، فلا تتكاسلْ إذا دُعيتَ للبذل وتتناقل، وتأملْ في كثيرٍ من الآيات، فقد ورد تقديم بذل المال على النفس ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٤١].

إنه القرآن الذي اختص الله به أمة الإسلام؛ فيه الهداية والرشاد والقوة والعزة ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكِ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾

## ١٧. الاصطفاف العسكري

تناول القرآن الكريم المسؤولية الفردية للجندي المقاتل، وذكرَ واجباته في المعركة؛ حيث العمل للقوة الصلبة، وفي المعارك ومقابلة الأعداء الفيصل هو السلاح، وثبات المقاتلين وصبرهم، فحذّر الله من الفرار والجبن، ودعا للثبات ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِنَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ <sup>ط</sup> وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿﴾ [الأَنْفَال: ١٥-١٦].

يقول ابن عاشور في تفسير هذه الآية: «الذي أرى في فقه هذه الآية أن ظاهر الآية هو تحريم التولي على أحادهم وجماعتهم إذا التقوا مع أعدائهم في ملاحم القتال والمجادة، بحيث إن المسلمين إذا توجهوا إلى

قتال المشركين أو إذا نزل المشركون لمقاتلتهم وعزموا على المقاتلة، فإذا التقى الجيشان للقتال وجب على المسلمين الثبات والصبر للقتال، ولو كانوا أقل من جيش المشركين، فإمّا أن ينتصروا، وإمّا أن يُستشهدوا، وعلى هذا فالللمسلمين النظر قبل اللقاء: هل هم بحيث يستطيعون الثبات أو لا؟ فإن وقت المجادلة يضيق عن التدبير، فعلى الجيش النظر في عدده وُعدده ونسبة ذلك من جيش عدوهم، فإذا أزمعوا الزحف وجب عليهم الثبات، وكذلك يكون شأنهم في مدة نزولهم بدار العدو، فإذا رأوا للعدو نجدة أو ازدياد قوة نظروا في أمرهم، هل يثبتون لقتاله أو ينصرفون بإذن أميرهم، فإمّا أن يأمرهم بالكف عن متابعة ذلك العدو، وإمّا أن يأمرهم بالاستتجاد والعودة إلى قتال العدو، كما صنع المسلمون في غزوة إفريقية الأولى، وهذا هو الذي يشهد له قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَأَثَبْتُمْ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ يوم الأحزاب، قام

في الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ  
وَسَلُّوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ فَإِذَا لَقَيْتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا وَاعْلَمُوا  
أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ»<sup>(١)</sup>. ولعل حكمة ذلك أن  
يمضي المسلمون في نصر الدين. وعلى هذا الوجه  
يكون لأمير الجيش، إذا رأى المصلحة في الانجلاء  
عن دار العدو وترك قتالهم، أن يغادر دار الحرب  
ويرجع إلى مقره، إذا أمن أن يلحق به العدو، وكان له  
من القوة ما يستطيع به دفاعهم إذا لحقوا به، فذلك  
لا يُسَمَّى تولية أديبار، بل هو رأي ومصلحة، وهذا  
عندي هو محمل ما رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ، عَنِ  
عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو حَدَّثَهُ، أَنَّهُ كَانَ فِي سَرِيَّةٍ مِنْ سَرَايَا  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَحَاصَ النَّاسُ حَيْصَةً، فَكُنْتُ  
فِي مَنْ حَاصٍ قَالَ: فَلَمَّا بَرَزْنَا قُلْنَا: كَيْفَ نَصْنَعُ وَقَدْ  
فَرَرْنَا مِنَ الزَّحْفِ وَبُؤْنَا بِالْغَضَبِ؟ فَقُلْنَا: نَدْخُلُ الْمَدِينَةَ  
فَنَنْتَبِئُ فِيهَا وَنَذْهَبُ وَلَا يَرَانَا أَحَدٌ. قَالَ: فَدَخَلْنَا فَقُلْنَا:

(١) أخرجه البخاري (٤/٥١ رقم ٢٩٦٥)، ومسلم (٣/١٣٦٢ رقم ١٧٤٢).

لَوْ عَرَضْنَا أَنْفُسَنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنْ كَانَتْ لَنَا تَوْبَةٌ أَقَمْنَا، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ ذَهَبْنَا. قَالَ: فَجَلَسْنَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، فَلَمَّا خَرَجَ قَمْنَا إِلَيْهِ فَقُلْنَا: نَحْنُ الْفَرَارُونَ. فَأَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ: «لَا. بَلْ أَنْتُمْ الْعُكَّارُونَ». قَالَ: فَدَنَوْنَا فَقَبَّلْنَا يَدَهُ، فَقَالَ: «إِنَّا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ»<sup>(١)</sup>. والعمكارون (أي الذين يكرون، يعني أن فراركم من قبيل الفرّ للكر، يقال للرجل إذا ولى عن الحرب ثم كرّ راجعاً إليها: عَكَرَ أَوْ اعْتَكَرَ)، «إِنَّا فِئَةُ الْمُسْلِمِينَ» يتأول لهم أن فرارهم من قبيل قوله تعالى: ﴿أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ قال ابن عمر: فَدَنَوْنَا فَقَبَّلْنَا يَدَهُ، فيفهم منه أن فرار ابن عمر وأصحابه لم يكن في وقت مجالدتهم المشركين، ولكنه كان انسلاًلاً لينحازوا إلى المدينة، فتلك فِئَتُهُمْ.

وإنما حرم الله الفرار في وقت مناجزة المشركين

(١) أخرجه أبو داود (٤٦/٣ رقم ٢٦٤٧)، والترمذي (٤/٢١٥ رقم ١٧١٦)،

وقال: هذا حديث حسن.

ومجالدتهم، وهو وقت اللقاء؛ لأن الفرار حينئذٍ يوقع في الهزيمة الشنيعة والتقتيل، وذلك أن الله أوجب على المسلمين قتال المشركين، فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلا بصبرهم وتأييد الله إياهم، فلو انكشفوا بالفرار لأعمل المشركون الرماح في ظهورهم فاستأصلوهم، فلذلك أمرهم الله ورسوله بالصبر والثبات، فيكون ما في هذه الآية هو حكم الصبر عند اللقاء»<sup>(١)</sup>.

هذا وقد رَغَبَ اللهُ سبحانه في الاصفاف العسكري؛ لتتحقق المهابة لدى العدو، فتراض الصفوف وانتظامها له أثره في حسم المعارك وبتّ الرعب في جبهة الخصوم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنِينَ مَرَّضُونَ﴾ [الصف:٤].

(١) التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ (٢٩١-٢٩٢).

وجاءت الآيات المنظمة للقوة الصلبة في المعارك،  
 فالقتال للمباشرين وليجدوا الشدة والغلظة، وفي ذلك  
 نصر وعز، فالله مع المقاتلين المتقين الملتزمين  
 بالتعليمات في سير المعارك ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا  
 الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَليَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ؕ وَأَعْلَمُوا  
 أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وعند التلاقي المسلح يأمر الله تعالى بالثبات والحسم  
 والقسوة على جند العدو، فلا رحمة ولا تردد، اضربوا  
 رقاب أعدائكم، وإذا أثخنتموهم وكسرتموهم، فبادروا  
 بأسر بقية المحاربين ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ  
 حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَانَ فِإِمَامًا مِّنَّا بَعْدُ وَإِمَامًا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ  
 أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنْصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّبَلَاغٍ بَعْضِكُمْ  
 بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

إنه القرآن الكريم يبني القوتين؛ الصلبة، والناعمة.



## ١٨. خبراء القوتين

قُوَّةٌ مَادِيَّةٌ، وَأُخْرَى رُوحِيَّةٌ، وَلِكُلِّ قُوَّةٍ خِبْرَاؤُهَا، إِلَّا أَنْ خِبْرَاءَ الْقُوَّةِ الْمَادِيَّةِ الصَّلْبَةِ كَثِيرُونَ، فَمُخْتَلَفِ الدُّوَلِ وَالشُّعُوبِ وَالْعَقَائِدِ تَتَسَابَقُ حَوْلَ بِنَاءِ الْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ الْخَشْنَةِ. وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ الْحَدِيدَ بِالْبَأْسِ الشَّدِيدِ، وَخِبْرَاؤُهُ بِأَسْهَمِ شَدِيدٍ أَيْضًا؛ إِذْ تَفَنَّنُوا فِي تَوْضِيفِ الْحَدِيدِ لِبِنَاءِ قَوَاتِهِمُ الْخَشْنَةَ، وَاهْتَدَوْا لِأَسَالِيبِ الْخَرَابِ وَالذَّمَارِ، فَصَنَعُوا وَسَائِلَ الْإِبَادَةِ، وَابْتَكَرُوا آلَاتَ الذَّمَارِ. وَقَانَا اللَّهُ شَرَّهُمْ وَمَكْرَهُمْ. وَقَدْ أَكَّدَ الْقُرْآنُ عَلَى بِنَاءِ قُوَّةِ الْمُسْلِمِينَ الصَّلْبَةَ وَفَقَ اسْتَطَاعَتِهِمْ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأمر سبحانه بقبول السلم ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١]. وهذا من مناهج القوة والتعامل العسكري.

ونبه القرآن للحذر ووعد بالنصر ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

ومصدر القوة الناعمة وأسئها: القرآن وسنة رسول الله ﷺ، فهما مصدرها النقي، ويلزم الدفع بخبراء القوة الناعمة لاستتباط وسائلها، وصياغة مناهجها، وتفعيلها وتطبيقها في الكليات العسكرية.

إن قوة الإسلام الناعمة تبني الإنسان من الداخل، فسيرة الصحابة منهج من مناهجها القوة الناعمة، وغزوات المسلمين ودروسها لون من ألوان القوة الناعمة، وفي العصر الحديث نرى قيام الدولة السعودية؛ تأسيسها

وما تعرّضت له من عداوات، ومكر الخصوم، وكيف قاومت وثبتت، فهي منهجٌ آخر من مناهج القوّة الناعمة، وانفراد الدولة السعودية عبر التاريخ بمزّيّةٍ وحيدةٍ فريدةٍ من بين الدول، وهي العودة مرّتين بعد السقوط بتوفيق الله، ثم بتفعيل القوّة الناعمة والالتزام بمنهجها.

والملك عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ فَعَلَّ القوّة الناعمة وجسّدها في توحيد المملكة، واستعادة ملك آباءه وأجداده، فكانت قوته الناعمة التي تمثلها في نفسه أولاً غالبية؛ إذ مكنته من جمع القبائل حوله، وساعدته في تكوين الهجر وجذب أبناء البادية وتوطينهم ونشر العلم بينهم، والدفع بالعلماء لكل هجرة لإنارة عقولهم ونقلهم من الجهل والبداءة للعلم والمعرفة، وبذلك جرى بناء المملكة العربية السعودية، وتوحيدها بعزة واستقلال، دون الاستعانة بولي يذلُّ له الملك عبدالعزيز، وإنما بعون الله وتوفيقه، ثم برجاله الكرام.

كان يوسف ياسين مستشار الملك عبدالعزيز في الركب الملكي عام ١٣٤٣هـ المتَّجِّه من الرياض إلى مكة، على ظهور الجمال مع الملك عبدالعزيز، وقد كتب وصفاً لتلك الرحلة، ومما ذكره أن عدداً من رجال البادية الذين وطَّنتهم الملك في الهِجْر لحقوا به وهو في الطريق يرفعون ألويتهم ومعهم علماءؤهم؛ فالشيخ عبدالله بن زاحم قدِمَ مع الوافدين من إحدى الهِجْر، تولى فيما بعد رئاسة قُضاة المدينة. كان للقوة الناعمة أثرها في تربية تصرف أبناء البادية وضبطهم.

وذكر يوسف: «أنه جاء للملك وهو في الدفينة رجلٌ من البادية، شكاً للملك رجلاً سلبه شيئاً من ماله، فبعث الملك معه أحد جنوده، ليمشي معه في عرض البادية الطويلة ليلاقي خصم الشاكي، فيحمل الاثنين إلى أقرب قاضٍ يُقيم في تلك الأطراف، بعثه إلى القوَّة الناعمة التي صار لها شأنٌ في الحكم، فيقضي بينهما بالعدل». يقول الراوي: «قلْتُ في نفسي يا الله أفي هذه الصحراء

العظيمة، والتي لا ندرك أطرافها تتال يدُ العدالة مجرمًا؟» ولكن من عرف كيفية الإدارة لتأمين الأمن في الديار النجدية زال عنه العجب من مثل هذه المناظر. ووصفَ نظام أيام الرحلة فقال: «الذين يكونون مع السلطان جنبًا إلى جنب ساعة المسير، يختلفون باختلاف الساعات، فإذا كان الوقت وقت قراءة القرآن أو الحديث أو شيء من التاريخ، وجدت العلماء وطلاب العلم من حوله، وإذا كانت الساعة ساعة بحثٍ في مواضيع السياسة، وجدت حوله أرباب الاختصاص فيها، وإذا كان الموضوع موضوع بحث في الطريق ومواقعه، وجدت حوله الأدلاء والخبيرين الذين لا يعزب عنهم تلة ولا شجرة ولا منبسط في هذه الصحراء العظيمة، وكل خادم من خدم السلطان يعرف العمل المكلف به».

وما ذكره الراوي في وصفه سير الرحلة أنه: «في آخر الليل يتحرك الركب الملكي، ويرفَعُ عبدالله بن أحمد

العُجيري صوته الجهوري بطائفة من الذكر الحكيم،  
 وإذا حان موعد صلاة الفجر توقفوا وأدّوا الصلاة، وبعد  
 الصلاة يقرأ الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ آياتٍ من  
 كتاب الله بصوتٍ يُحدث في النفس كثيراً من الخشوع  
 والخشية، ثم ينفرد الملك عبدالعزيز بنفسه، ويتلو حزياً  
 فيه أدعية مأثورة، أكثرها مأخوذٌ من القرآن الكريم،  
 وكذلك يفعل كثيرٌ من رجال الركب بأدعية اعتادها  
 في أيامه، ويدوم ذلك قدر ساعة حتى تطلع الشمس.  
 وحين تتطلق نجائبهم بهم صباحاً، يُنادي الملك عبدالعزيز  
 أحد طلاب العلم فتقترب راحلته من راحلة الملك ويقرأ  
 في صحيح مسلم؛ يقرأ ما شاء الله، ثم يأخذ تاريخ  
 ابن الأثير فيقرأ فيه، كما يقرؤون في السيرة النبوية  
 التي يكون لها الأثر في نفوسهم ما يدعوهم للتأسي  
 بأعمال الرسول ﷺ وأصحابه الذين لاقوا من النَّصَبِ  
 والتَّعَبِ في سبيل نشر الدعوة الإسلامية ما لاقوه».

وهكذا كُلُّ ما أناخوا أو ارتحلوا، فهم مع القرآن والعلم، يقرؤون يقول الراوي: «حين يصلون الظهر والعصر جمعاً وقصراً، ينادي المنادي الرحيل: وما أن ينطلق الركب إلا وينادي الملك عبدالعزيز لابن الشيخ فتقرب راحلته من راحلة الملك عبدالعزيز، ويقرأ في كتاب (الترغيب والترهيب)، وبعد برهة من الزمن يُغيّر فيقرأ بضعة من الوقت في كتاب (آداب ابن مُفلح) وإذا قاربت الشمس المغيب وهم يسيرون، خلا السلطان بنفسه وهو على راحلته»، (كان هذا فيما سبق لقب الملك عبدالعزيز) يقول ياسين: «يأخذ كُتيباً فيه الحزب الذي يقرأه في المساء، فيقرأ ما شاء الله، ثم نقف فنصلي المغرب والعشاء، ونشربُ القهوة، ثم نركبُ الرواحل وننطلق، وينادي الملك لأحد القراء من آل الشيخ، فيقرأ مرة أخرى»<sup>(١)</sup>.

(١) الرحلة الملكية: يوسف ياسين، جمع وتنقيح وتعليق: عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ، المكتبة المكية،

وهكذا كانت رحلتهم إن ارتحلوا وإن أقاموا مع القرآن  
والعلم، مع القوّة الناعمة التي تصنع النفوس، وتبني  
المجتمع البناء السليم.



## ١٩. السُّلْمُ وَالصُّلْحُ

حين يُوجَّه القرآن المسلمین لبناء قُوَّتِهِم الناعمة والصلبة،  
يُشرِّعُ لهم متى تُستخدم تلك القوَّة؛ فهي للدفاع والذود  
عن حمى المسلمین، وليست العدوان والظلم، فالله لا  
يحب المعتدين ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا  
تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وإذا رغب العدو المحارب في الصلح والسُّلْم، فأقبلوا  
وتوكلوا على الله ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى  
اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «﴿وَإِنْ  
جَنَحُوا﴾؛ أي: الكفار المحاربون؛ أي: مالوا إلى السُّلْم؛  
أي: الصلح وترك القتال، ﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾؛

أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك؛ فإن في ذلك فوائد كثيرة:

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت؛ فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك؛ كان أولى إجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماماً لقواكم واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر إن احتيج إلى ذلك.

ومنها: أنكم إذا تصالحتم وأمن بعضكم بعضاً وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر؛ فإن الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه؛ فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف؛ فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان؛ لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم. وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه؛ فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين»<sup>(١)</sup>.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (ص ٣٢٥).

وجاء في آية أُخْرَى التَّوْجِيهِ بِإِجَابَةِ الْمُسْتَجِيرِ، فَمَنْ  
 شَعَرْتُمْ بِرَغْبَتِهِ فِي السَّلْمِ وَسَمَاعِ كَلِمَةِ الْحَقِّ فَاسْتَجِيبُوا  
 لَهُ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ  
 كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا آمَنَهُ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].  
 دين العظمة والسماحة والسلم والسلام.

قال الشيخ ابن سعدي رَحِمَهُ اللهُ: «أي: طلب منك أن  
 تُجِيرَهُ، وتمنعه من الضرر؛ لأجل أن يسمع كلام الله،  
 وينظر حالة الإسلام ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾، ثم إن  
 أسلم، فذاك، وإلا فأبلغه ما آمنه؛ أي: المحل الذي يأمن  
 فيه، والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما  
 كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا  
 عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في  
 الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله»<sup>(١)</sup>.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن  
 ناصر بن عبدالله السعدي (ص ٣٢٩).

هذا وبعد، فإن الإسلام دينُ الله الكامل، فحين يُوجِّه بالإجارة والرفق يُنبِّه للحذر والحيلة، والاحتراز من الخديعة وأخذ الحيلة.

إنه القرآن يصنع القوَّة العسكرية المتوازنة ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢].

قال الشيخ ابن سعدي: «ولا يُخاف من السلم إلا خَصْلَةٌ واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خَدَعَ المسلمين وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأنَّ ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ﴾؛ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهمَّاتك؛ فقد سبق لك من كفايته لك ونصره ما يطمئنُّ به قلبك، فهو ﴿ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ أي: أعانك بمعونة سماويَّة، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة

بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك»<sup>(١)</sup>.

وفي سيرة الرسول ﷺ الدروس والمنهج، فهو القدوة، ومنه نتعلم عندما جاء لمكة معتمراً، وقد ساق الهدى رده كفار قريش ومنعوه من أداء العمرة، فكان صلح الحديبية والسلم، وقد ظن بعض الصحابة أن في المصالحة والسلام ضعفاً وخوراً، فجاء القرآن ليكشف النتيجة والمآل، وهو أن في السلم فتحاً ونصراً، قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح: ١-٣].

مما ذكره ابن الجوزي في تفسيره: «قال الزُّهْرِيُّ: لَمْ يَكُنْ فَتْحٌ أَعْظَمَ مِنْ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَّةِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اخْتَلَطُوا بِالْمُسْلِمِينَ فَسَمِعُوا كَلَامَهُمْ فَتَمَكَّنَ الْإِسْلَامُ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (ص ٢٢٥-٢٢٦).

فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَسْلَمَ فِي ثَلَاثِ سِنِينَ خَلَقَ كَثِيرٌ وَكَثُرَ بِهِمْ  
سَوَادُ الْإِسْلَامِ.

وَرَوَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي النَّوْمِ  
كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ  
أَمِينٍ)، فَأَصْبَحَ فَحَدَّثَ النَّاسَ بِرُؤْيَاهُ، وَأَمَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ  
لِلْعُمْرَةِ؛ فَذَكَرَ أَهْلُ الْعِلْمِ بِالسَّيْرِ أَنَّهُ خَرَجَ وَاسْتَنْفَرَ أَصْحَابَهُ  
لِلْعُمْرَةِ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ سِتٍّ، وَلَمْ يَخْرُجْ بِسِلَاحٍ إِلَّا السُّيُوفَ  
فِي الْقُرْبِ. وَسَاقَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ الْبَدْنَ. فَصَلَّى الظُّهْرَ  
بِ(ذِي الْحُلَيْفَةِ)، ثُمَّ دَعَا بِالْبَدَنِ فَجَلَّتْ، ثُمَّ أَشْعَرَهَا  
وَقَلَّدَهَا، وَفَعَلَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ، وَأَحْرَمَ وَلَبَّى، فَبَلَغَ الْمُشْرِكِينَ  
خُرُوجَهُ، فَاجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى صَدِّهِ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ،  
وَخَرَجُوا حَتَّى عَسَّكَرُوا ب (بَلَدِجِ)، وَقَدَّمُوا مِثِّي فَارِسِ  
إِلَى كُرَاعِ الْغَمِيمِ، وَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى دَنَا مِنْ  
الْحُدَيْبِيَّةِ؛ قَالَ الرَّجَاجُ: وَهِيَ بَيْتْرٌ، فَسُمِّيَ الْمَكَانُ بِاسْمِ

البئر؛ قالوا: وبينها وبين مكة تسعة أميال، فوقفَت يدا راحلتِه، فقال المسلمون: حلَّ حلَّ يزجرونها، فأبَت، فقالوا: خلأتِ القِصَواءُ -والخِلاءُ في الناقةِ مثل الحِرانِ في الفرسِ- فقال: «ما خلأت، ولكن حبسها حابسُ الفيل، أما والله لا يسألوني خُطةً فيها تعظيمُ حُرمةِ الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم جرَّها فقامت، فولى راجعاً عودُه على بدئه، حتَّى نزلَ على ثَمَدٍ من أثمادِ الحُدَيبيَّةِ قليلِ الماءِ، فانتزعَ سَهْمًا من كِنانتهِ فغرزه فيها، فجاشت لهم بالرواءِ، وجاءهُ بديلُ بنُ ورقاءَ في ركبٍ فسَلَّموا، وقالوا: جِئناكَ من عندِ قومِكَ وقد استتفروا لك الأحياءَ ومَن أطاعهم، يُقسِمون، لا يُخلون بينك وبين البيتِ حتَّى تُبيدَ خِضراءَهُم، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لَمْ نَأْتِ لِقِتالِ أَحَدٍ إِنَّمَا جِئنا لِنَطوِّفَ بِهَذَا البَيْتِ، فَمَن صَدَّنا عَنْهُ قاتلناه»<sup>(١)</sup>، فَرَجَعَ بِدِيلٌ فَأخْبَرَ قُرَيْشًا، فَبَعَثُوا عُرْوَةَ بْنَ

(١) أخرج البخاري هذا الحديث باختلاف يسير (٢/١٩٣ رقم ٢٧٢١-٢٧٢٢).

مَسْعُودٍ، فَكَلَّمَهُ بِنَحْوِ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَ قُرَيْشًا، فَقَالُوا: نَرُدُّهُ  
 مِنْ عَامِنَا هَذَا، وَيَرْجِعُ مِنْ قَابِلٍ فَيَدْخُلُ مَكَّةَ وَيَطُوفُ  
 بِالْبَيْتِ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ، قَالَ:  
 «أَذْهَبْ إِلَى قُرَيْشٍ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَإِنَّمَا  
 جِئْنَا زُورًا لِهَذَا الْبَيْتِ، مَعَنَا الْهَدْيُ نَنْحِرُهُ وَنَنْصَرِفُ»،  
 فَأَتَاهُمْ فَأَخْبَرَهُمْ، فَقَالُوا: لَا كَانَ هَذَا أَبَدًا، وَلَا يَدْخُلُهَا  
 الْعَامَ، وَبَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عُثْمَانَ قَدْ قُتِلَ، فَقَالَ: «لَا  
 نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِزَهُمْ»، فَذَلِكَ حِينَ دَعَا الْمُسْلِمِينَ إِلَى  
 بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، فَبَايَعَهُمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ.

وَفِي عَدَدِهِمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَلْفٌ وَأَرْبَعٌ مِئَةً، قَالَهُ الْبَرَاءُ، وَسَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ،  
 وَجَابِرٌ، وَمَعْقِلُ بْنُ يَسَارٍ.

وَالثَّانِي: أَلْفٌ وَخَمْسُ مِئَةٍ، رُوِيَ عَنْ جَابِرٍ أَيْضًا، وَبِهِ  
 قَالَ قَتَادَةُ.

وَالثَّلَاثُ: أَلْفٌ وَخَمْسُ مِئَةٍ وَخَمْسُ وَعِشْرُونَ، رَوَاهُ الْعَوْفِيُّ  
 عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ.

وَالرَّابِعُ: أَلْفٌ وَثَلَاثُ مِئَةٍ، قَالَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أَوْفَى.

قَالَ: «وَضَرَبَ يَوْمَئِذٍ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِشِمَالِهِ عَلَى يَمِينِهِ لِعُثْمَانَ، وَقَالَ: إِنَّهُ ذَهَبَ فِي حَاجَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»، وَجَعَلَتِ الرُّسُلُ تَخْتَلِفُ بَيْنَهُمْ، فَأَجْمَعُوا عَلَى الصُّلْحِ، فَبَعَثُوا سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو فِي عِدَّةِ رِجَالٍ، فَصَالَحَهُ فَأَقَامَ بِالْحُدَيْبِيَّةِ بِضْعَةَ عَشْرَ يَوْمًا، وَيُقَالُ: عِشْرِينَ لَيْلَةً، ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمَّا كَانَ بِ(ضَجْنَانَ) نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾، فَقَالَ جَبْرِيلُ: يُهْنِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَنَّاهُ الْمُسْلِمُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ الْمَعْنَى: لِكَيْ يَجْتَمَعَ لَكَ مَعَ الْمَغْفِرَةِ تَمَامَ النُّعْمَةِ فِي الْفَتْحِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالْمَعْنَى: «مَا تَقَدَّمَ» فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَ«مَا تَأَخَّرَ» مَا لَمْ تَعْلَمْهُ، وَهَذَا عَلَى سَبِيلِ التَّأَكِيدِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُتِمَّرْ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ فِيهِ أَرْبَعَةٌ أَقْوَالٌ.

أَحَدُهَا: أَنَّ ذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ بِالنَّبُوءِ وَالْمَغْفِرَةِ، رُويَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ.  
وَالثَّلَاثُ: بِفَتْحِ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ وَخَيْبَرَ، حَكَاهُ الْمَاوَرِدِيُّ.  
وَالرَّابِعُ: بِإِظْهَارِ دِينِكَ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ، قَالَهُ أَبُو  
سُلَيْمَانَ الدَّمَشْقِيُّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ أَي: وَيُثَبِّتُكَ عَلَيْهِ؛  
وَقِيلَ: وَيَهْدِي بِكَ، ﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ﴾ عَلَى عَدُوِّكَ ﴿نَصْرًا  
عَزِيزًا﴾ قَالَ الزَّجَّاجُ: أَي: نَصْرًا ذَا عِزٍّ لَا يَقَعُ مَعَهُ ذُلٌّ<sup>(١)</sup>.  
هَذَا هُوَ مِنْهَجُ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي بَدَأَتْ فِي الْمَدِينَةِ قُوَّةً  
وَمَهَابَةً، وَصَلِحٌ وَسَلِمٌ.



(١) زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي،  
تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ  
(٤/١٢٥-١٢٨)، وانظر: الطبقات الكبرى: ابن سعد، قدّم لها: إحسان  
عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٦٨م (٢/٩٦).

## ٢٠. البَطْر والغرور

ومن وسائل القوّة الناعمة العدل، وترك البَطْر، والفخر، فالعدل والتواضع يزرعان الحب، ويزيدان التلاحم، وتلك قوّة ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ<sup>ع</sup> وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

مما جاء في تفسير البغوي لهذه الآية: «(بَطْرًا) فخرًا وأشراً، (وَرِئَاءَ النَّاسِ) قال الزجاج: البَطْر الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء: إظهار الجميل ليُرى وإبطان القبيح.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ<sup>ع</sup> وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ نزلت في المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغى وفخر، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ هَذِهِ قُرَيْشٌ قَدْ

أَقْبَلَتْ بِخِيَالِهَا وَفَخَرَهَا تَجَادُلِكَ وَتُكذِّبُ رَسُوكَ،  
اللَّهُمَّ فَانصُرْكَ الَّذِي وَعَدْتَنِي»<sup>(١)</sup>.

قالوا: لما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم فقد نجاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، وكان بدر موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام، فنقيم بها ثلاثًا فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والحسبة في نصر دينه ومؤازرة نبيه ﷺ<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/٤٤٠-٤٤١)، والبيهقي في دلائل النبوة باختلاف يسير (٣/٣٥).

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (٣/٣٦٥-٣٦٦).

هذا وحين ينهى القرآن عن البَطْر فإنه يأمر بالتواضع والعدل والوفاء بالعهود واحترام المواثيق، وتلك القوَّة والعزَّة ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ التَّضَرُّ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأَنْفَال: ٧٢].  
وهنا استثناء إذا كان هناك ميثاقٌ وجب الوفاء به.

إنه دين العظمة والعزَّة، دين البناء والقوَّة، دين الوفاء واحترام العقود.

في معركة بدر حيث كان الرسول ﷺ بحاجة لكل مساعدة، وقد جاءت قريش للحرب بقوتها وعتادها، مع أن الرسول ﷺ حين خرج من المدينة كان عدد الذين معه من الصحابة محدوداً، وليس في نيتهم الحرب، وإنما أرادوا وودّوا قافلة قريش القادمة من الشام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٧].

في تلك المعركة التاريخية صار موقف تعهد ووفاء لأبي حذيفة، لكن قبل ذكر قصة ذلك الموقف، نستعرض ما ورد في تفسير البغوي عن تلك المعركة قال: «أَقْبَلَ أَبُو سُفْيَانَ مِنَ الشَّامِ فِي عَيْرٍ لِقُرَيْشٍ فِي أَرْبَعِينَ رَاكِبًا مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فِيهِمْ: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَمَخْرَمَةُ بْنُ نَوْفَلِ الزُّهْرِيِّ، وَفِيهَا تِجَارَةٌ كَثِيرَةٌ، وَهِيَ اللَّطِيمَةُ<sup>(١)</sup> حَتَّى إِذَا كَانُوا قَرِيبًا مِنْ بَدْرِ، فَبَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ فَندَبَ أَصْحَابَهُ إِلَيْهِ وَأَخْبَرَهُمْ بِكَثْرَةِ الْمَالِ وَقِلَّةِ الْعَدَدِ، وَقَالَ: هَذِهِ عَيْرُ قُرَيْشٍ فِيهَا أَمْوَالُكُمْ فَاخْرُجُوا إِلَيْهَا لَعَلَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يُنْفِلَكُمْوهَا، فَانْتَدَبَ النَّاسَ فَخَفَّ بَعْضُهُمْ وَثَقَلَ بَعْضُهُمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَلْقَى حَرْبًا.

فَلَمَّا سَمِعَ أَبُو سُفْيَانَ بِمَسِيرِ النَّبِيِّ ﷺ اسْتَأْجَرَ ضَمْضَمَ بْنَ عَمْرٍو الْغِفَارِيَّ، فَبِعْتَهُ إِلَى مَكَّةَ، وَأَمَرَهُ أَنْ

(١) اللطيمة: العير التي تحمل الطيب وبز التجارة.

يَأْتِي قُرَيْشًا فَيَسْتَفْرِهُمُ وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا قَدْ عَرَضَ  
لِعَيْرِهِمْ فِي أَصْحَابِهِ، فَخَرَجَ ضَمَضَمٌ سَرِيعًا إِلَى مَكَّةَ.  
وَقَدْ رَأَتْ عَاتِكَةَ بِنْتُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ قَبْلَ قُدُومِ ضَمَضَمِ  
مَكَّةَ بِثَلَاثِ لَيَالٍ رُؤْيَا أَفْزَعَتْهَا فَبَعَثَتْ إِلَى أَخِيهَا الْعَبَّاسِ  
بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَتْ لَهُ: يَا أَخِي وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ  
اللَّيْلَةَ رُؤْيَا أَفْزَعْتَنِي وَخَشَيْتُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ قَوْمِكَ  
مِنْهَا شَرٌّ وَمُصِيبَةٌ، فَكُتِّمَ عَلَيَّ مَا أَحَدَّثَكَ. قَالَ لَهَا:  
وَمَا رَأَيْتِ؟ قَالَتْ: رَأَيْتُ رَاكِبًا أَقْبَلَ عَلَيَّ بَعِيرٍ لَهُ حَتَّى  
وَقَفَ بِالْأَبْطَحِ، ثُمَّ صَرَخَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ أَلَا انْفِرُوا يَا آلَ  
غُدْرٍ<sup>(١)</sup> لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلَاثِ، فَأَرَى النَّاسَ قَدْ اجْتَمَعُوا  
إِلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ وَالنَّاسُ يَتَّبِعُونَهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ حَوْلَهُ  
مَثَلُ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى ظَهْرِ الْكَعْبَةِ، ثُمَّ صَرَخَ بِمِثْلِهَا بِأَعْلَى  
صَوْتِهِ أَلَا انْفِرُوا يَا آلَ غُدْرٍ لِمَصَارِعِكُمْ فِي ثَلَاثِ، ثُمَّ

(١) آل مُضَافٌ إِلَى غُدْرٍ، مَعْدُولٌ بِهِ مِنَ الْغَادِرِ لِلْمُبَالَغَةِ.

مَثَلٌ بِهِ بَعِيرُهُ عَلَى رَأْسِ أَبِي قُبَيْسٍ، فَصَرَخَ بِمِثْلِهَا،  
ثُمَّ أَخَذَ صَخْرَةً فَأَرْسَلَهَا فَأَقْبَلَتْ تَهْوِي حَتَّى إِذَا كَانَتْ  
بِأَسْفَلِ الْجَبَلِ ارْفَضَتْ فَمَا بَقِيَ بَيْتٌ مِنْ بُيُوتِ مَكَّةَ  
وَلَا دَارٌ مِنْ دُورِهَا إِلَّا دَخَلَتْهَا مِنْهَا فِلَقَةٌ»<sup>(١)</sup>.

فَقَالَ الْعَبَّاسُ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَرُؤْيَا رَأَيْتِ! فَاكْتَمَيْهَا وَلَا  
تَذَكِّرِيهَا لِأَحَدٍ. ثُمَّ خَرَجَ الْعَبَّاسُ فَلَقِيَ الْوَلِيدَ ابْنَ عُتْبَةَ  
بَنِ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا فَذَكَرَهَا  
لَهُ وَاسْتَكْتَمَهُ إِيَّاهَا، فَذَكَرَهَا الْوَلِيدُ لِأَبِيهِ عُتْبَةَ فَفَشَا  
الْحَدِيثُ حَتَّى تَحَدَّثَتْ بِهِ قُرَيْشٌ.

قَالَ الْعَبَّاسُ: فَغَدَوْتُ أَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ  
فِي رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَعُودٌ يَتَحَدَّثُونَ بِرُؤْيَا عَاتِكَةَ، فَلَمَّا  
رَأَى أَبُو جَهْلٍ قَالَ: يَا أَبَا الْفَضْلِ إِذَا فَرَعْتَ مِنْ طُؤَافِكَ  
فَأَقْبِلْ إِلَيْنَا، قَالَ: فَلَمَّا فَرَعْتَ أَقْبَلْتُ حَتَّى جَلَسْتُ مَعَهُمْ،  
فَقَالَ لِي أَبُو جَهْلٍ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ مَتَى حَدَّثَتْ

(١) الفلقة بالكسر، هي: الكسرة.

هَذِهِ النَّبِيَّةُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: الرَّؤْيَا الَّتِي رَأَتْ  
عَاتِكَةَ؟ قُلْتُ: وَمَا رَأَتْ؟ قَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ أَمَا  
رَضِيْتُمْ أَنْ تَتَّبِعُوا رِجَالَكُمْ حَتَّى تَتَّبِعُوا نِسَاءَكُمْ؟ قَدْ زَعَمَتْ  
عَاتِكَةُ فِي رُؤْيَاهَا أَنَّهُ قَالَ: انْفِرُوا فِي ثَلَاثٍ فَسَنَتَرَبَّصُ  
بِكُمْ هَذِهِ الثَّلَاثُ، فَإِنْ يَكُ مَا قَالَتْ حَقًّا فَسَيَكُونُ، وَإِنْ  
تَمَّضَ الثَّلَاثُ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ، نَكْتُبُ عَلَيْكُمْ  
كِتَابًا أَنَّكُمْ أَكْذَبُ أَهْلِ بَيْتٍ فِي الْعَرَبِ.

فَقَالَ الْعَبَّاسُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنِّي إِلَيْهِ كَبِيرٌ إِلَّا أَنِّي جَحَدْتُ  
ذَلِكَ، وَأَنْكَرْتُ أَنْ تَكُونَ رَأَتْ شَيْئًا، ثُمَّ تَفَرَّقْنَا، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ  
لَمْ تَبَقِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَلِّبِ إِلَّا أَتَتْنِي فَقَالَتْ: أَقَرَّرْتُمْ  
لِهَذَا الْفَاسِقِ الْخَبِيثِ أَنْ يَقَعَ فِي رِجَالِكُمْ، ثُمَّ قَدْ تَنَاوَلَ النِّسَاءَ  
وَأَنْتَ تَسْمَعُ، ثُمَّ لَمْ تَكُنْ عِنْدَكَ غَيْرَةً لِشَيْءٍ مِمَّا سَمِعْتَ؟  
قَالَ: قُلْتُ وَاللَّهِ قَدْ فَعَلْتُ مَا كَانَ مِنِّي إِلَيْهِ مِنْ كَثِيرٍ،  
وَأَيْمُ اللَّهِ لَا تَعْرِضَنَّ لَهُ فَإِنْ عَادَ لِأَكْفِيَنَّكَ.

قَالَ: فَغَدَوْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ مِنْ رُؤْيَا عَاتِكَةَ وَأَنَا حَدِيدٌ

مُغْضَبٌ أَرَىٰ أَنْ قَدْ فَاتَتِي مِنْهُ أَمْرٌ أَحِبُّ أَنْ أَدْرِكَهُ مِنْهُ،  
 قَالَ: فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَرَأَيْتُهُ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَمْشِي نَحْوَهُ  
 أَتَعَرَّضُهُ لِيَعُودَ لِبَعْضِ مَا قَالَ فَأَقَعُ بِهِ، وَكَانَ رَجُلًا خَفِيفًا،  
 حَدِيدَ الْوَجْهِ، حَدِيدَ اللِّسَانِ، حَدِيدَ النَّظَرِ، إِذْ خَرَجَ نَحْوِ  
 بَابِ الْمَسْجِدِ يَشْتَدُّ.

قَالَ: قُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا لَهُ لَعْنَةُ اللَّهِ؟ أَكُلَّ هَذَا فِرْقًا  
 مِنِّي أَنْ أُشَاتِمَهُ؟ قَالَ: فَإِذَا هُوَ قَدْ سَمِعَ مَا لَمْ أَسْمَعْ،  
 صَوْتٌ ضَمَّضَ بِنِ عَمْرٍو، وَهُوَ يَصْرُخُ بِبَطْنِ الْوَادِي وَاقِفًا  
 عَلَى بَعِيرِهِ، وَقَدْ جَدَعَ بَعِيرَهُ<sup>(١)</sup> وَحَوْلَ رَحْلِهِ وَشَقَّ قَمِيصَهُ  
 وَهُوَ يَقُولُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشِ اللَّطِيْمَةِ اللَّطِيْمَةِ أَمْوَالِكُمْ  
 مَعَ أَبِي سُفْيَانَ قَدْ عَرَضَ لَهَا مُحَمَّدٌ فِي أَصْحَابِهِ،  
 لَا أَرَىٰ أَنْ تُدْرِكُوهَا، الْغَوْتُ الْغَوْتُ. قَالَ: فَشَغَلَنِي عَنْهُ  
 وَشَغَلَهُ عَنِّي مَا جَاءَ مِنَ الْأَمْرِ، فَتَجَهَّزَ النَّاسُ سِرَاعًا  
 فَلَمْ يَتَخَلَّفْ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ أَحَدٌ إِلَّا أَنْ أَبَا لَهَبٍ

(١) أي قطع أنف بعيره.

قَدْ تَخَلَّفَ وَبَعَثَ مَكَانَهُ الْعَاصِ بْنِ هِشَامِ ابْنَ الْمُغِيرَةَ.  
فَلَمَّا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ لِلْمَسِيرِ ذَكَرَتْ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ  
بَنِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ مَنَاةَ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ الْحَارِثِ، فَقَالُوا:  
نَخْشَى أَنْ يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا فَكَادَ ذَلِكَ أَنْ يُشْتِيَهُمْ، فَتَبَدَّى  
لَهُمْ إِبْلِيسُ فِي صُورَةِ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جَعْشَمٍ، وَكَانَ  
مِنْ أَشْرَافِ بَنِي بَكْرِ، فَقَالَ: أَنَا جَارٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَأْتِيَكُمْ  
كِنَانَةُ مِنْ خَلْفِكُمْ بِشَيْءٍ تَكْرَهُونَهُ.

فَخَرَجُوا سِرَاعًا، وَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي أَصْحَابِهِ،  
فِي لَيْالٍ مَضَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ وَادِيًا  
يُقَالُ لَهُ ذَفِرَانَ، فَأَتَاهُ الْخَبْرُ عَنْ مَسِيرِ قُرَيْشٍ لِيَمْنَعُوا  
عِيْرَهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ بِالرَّوْحَاءِ  
أَخَذَ عَيْنًا لِلْقَوْمِ فَأَخْبَرَهُ بِهِمْ.

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيْضًا عَيْنًا لَهُ مِنْ جُهَيْنَةَ حَلِيفًا  
لِلْأَنْصَارِ، يُدْعَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أُرَيْقِطٍ، فَأَتَاهُ بِخَبْرِ الْقَوْمِ

وَسَبَقَتِ الْعَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَنَزَلَ جَبْرِيلُ وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ: إِمَّا الْعَيْرَ وَإِمَّا قُرَيْشًا»، وَكَانَتِ الْعَيْرُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ، فَاسْتَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ فِي طَلَبِ الْعَيْرِ وَحَرْبِ النَّفِيرِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ عُمَرُ فَقَالَ فَأَحْسَنَ، ثُمَّ قَامَ الْمُقَدَّادُ بَنُ عَمْرٍو فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللَّهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، فَوَاللَّهِ مَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنْ نَقُولُ: اذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمْ مُقَاتِلُونَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرَّتْ بِنَا إِلَى بَرَكِ الْغَمَادِ. يَعْنِي مَدِينَةَ الْحَبْشَةِ، لَجَالَدْنَا مَعَكَ مَنْ دُونَهُ حَتَّى تَبْلُغَهُ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَيْرًا وَدَعَا لَهُ بِخَيْرٍ.

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ»، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْأَنْصَارَ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ عَدَدُ النَّاسِ وَأَنَّهَمْ

حِينَ بَايَعُوهُ بِالْعَقَبَةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا بَرَاءٌ مِنْ  
 ذِمَامِكَ حَتَّى تَصِلَ إِلَيْ دَارِنَا، فَإِذَا وَصَلْتَ إِلَيْنَا فَأَنْتَ  
 فِي ذِمَامِنَا نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، فَكَانَ  
 رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَخَوَّفُ أَنْ لَا تَكُونَ الْأَنْصَارُ تَرَى عَلَيْهَا  
 نُصْرَتَهُ إِلَّا عَلَى مَنْ دَهَمَهُ بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ لَيْسَ  
 عَلَيْهِمْ أَنْ يَسِيرَ بِهِمْ إِلَى عَدُوٍّ مِنْ بِلَادِهِمْ.

فَلَمَّا قَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ:  
 وَاللَّهِ لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَجَلٌ». قَالَ:  
 قَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا جِئْتَنَا بِهِ هُوَ  
 الْحَقُّ، أَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودًا وَمَوَاقِيقَ عَلَى السَّمْعِ  
 وَالطَّاعَةِ، فَاْمُضِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَا أَرَدْتَ، فَوَالَّذِي بَعَثَكَ  
 بِالْحَقِّ لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخَضْتَهُ لَخَضْنَاهُ  
 مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّْا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكَرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا  
 عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصَبْرٌ عِنْدَ الْحَرْبِ صِدْقٌ فِي اللَّقَاءِ،

وَلَعَلَّ اللَّهُ تَعَالَى يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا  
 عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ، فَسِرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ وَنَشَطَهُ  
 ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللَّهَ  
 قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، وَاللَّهِ لِكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ  
 إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ».

قَالَ ثَابِتٌ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا  
 مَصْرَعُ فَلَانٍ وَهَذَا مَصْرَعُ فَلَانٍ»، قَالَ وَيَضَعُ يَدَهُ عَلَى  
 الْأَرْضِ هَا هُنَا وَهَا هُنَا، قَالَ: فَمَا مَاطَ أَحَدٌ عَنْ مَوْضِعِ  
 يَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ  
 إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾، أَيِ الْفَرِيقَيْنِ: إِحْدَاهُمَا أَبُو  
 سُفْيَانَ مَعَ الْعَيْرِ، وَالْأُخْرَى أَبُو جَهْلٍ مَعَ النَّفِيرِ.

﴿وَتَوَدُّونَ﴾ أَيِ: تُرِيدُونَ ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ  
 تَكُونُ لَكُمْ﴾ يَعْنِي الْعَيْرَ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا قِتَالٌ. وَالشَّوْكَةُ:  
 الشَّدَّةُ وَالْقُوَّةُ، وَيُقَالُ السَّلَاحُ.

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾ أَي يُظْهِرُهُ وَيُعْلِيهِ، ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ بِأَمْرِهِ إِيَّاكُمْ بِالْقِتَالِ<sup>(١)</sup>.

هذا ونعرض ما روته كتب السيرة عما حدث لأبي حذيفة في ذلك اليوم التاريخي العظيم، في اللقاء الأول بين الإسلام والكفر؛ حيث شهد المعركة ولم يشارك في القتال، وترك الرسول ﷺ والصحابة في ذاك اليوم العصيب، وفي تلك اللحظات الرهيبة والرسول بحاجة لكل مساندة ولكل مقاتل.

يقول حذيفة بن اليمان: مَا مَنَعَنِي أَنْ أَشْهَدَ بَدْرًا إِلَّا أَنِّي خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي حُسَيْلٌ، قَالَ: فَأَخَذَنَا كُفَّارٌ قُرَيْشٍ، قَالُوا: إِنَّكُمْ تُرِيدُونَ مُحَمَّدًا، فَقُلْنَا: مَا نُرِيدُهُ، مَا نُرِيدُ إِلَّا الْمَدِينَةَ، فَأَخَذُوا مِنَّا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَنَنْصُرِفَنَّ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَلَا نُقَاتِلُ مَعَهُ، فَاتَيْنَا رَسُولَ

(١) معالم التنزيل في تفسير القرآن: محيي السنة، أبو محمد الحسين

بن مسعود البغوي (٣/٢٢٨-٢٣٢).

اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَنَا الْخَبَرَ، فَقَالَ: «انصَرَفَا، نَفِي لَهُمْ  
بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ»<sup>(١)</sup>.

موقفٌ عظيمٌ من رسول الله ﷺ، ودرسٌ لأُمَّته؛ احتراماً  
لعهدٍ صار مع المشركين عبدة الأصنام الذين جاؤوا  
بقضِّهم وقضيضهم لسفك دم رسول الله ﷺ وصحابته،  
ومع هذا العداء والحقد، يأمر الرسول أبا حذيفة أن  
يفي بعهده لهم، إنه الوفاء وليس البَطْر والغرور.



(١) أخرجه مسلم (١٤١٤/٣ رقم ١٧٨٧)، وانظر: السيرة النبوية كما جاءت  
في الأحاديث الصحيحة: محمد حمد الصوياني: مكتبة العبيكان،  
الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤٢١هـ (٨٩/٢).

## ٢١. الخلاف والنزاع

تتهأر الدول بالخلاف الداخلي، وتضعف القوة بخصومة الأفراد، وفي الوحدة قوة، وفي النزاع فشل ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَا تَنزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأففال: ٤٦].

وأمر الله في القرآن الكريم بالوحدة والاعتصام بدين الله، ونهى عن الخلاف وأسبابه، وذكر الأنصار في المدينة بما كانوا عليه قبل الإسلام: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وهذا التوجيه الرباني عامٌ لجميع المسلمين في كل زمان ومكان.

مما قاله ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين؛ فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدّها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتقطع روابطهم، ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكّره تعالى نعمته وأمرهم بذكرها، فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والقتال، وكانوا في شرٍّ

عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ، فلما بعثه الله وآمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تآلف قلوبهم وموالاته بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قد استحققت النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بما منَّ عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرهما، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرًا له ومحبةً، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ، واجتماع كلمة المسلمين، وعدم تفرقها»<sup>(١)</sup>.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (ص١٤١).

هذا، وذكر الشوكاني في تفسيره: «عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ قَالَ: مَرَّ شَاسُ بْنُ قَيْسٍ -وكانَ شَيْخًا قَدْ عَسَى فِي الجَاهِلِيَّةِ، عَظِيمَ الكُفْرِ، شَدِيدَ الطَّعْنِ عَلَى المُسْلِمِينَ، شَدِيدَ الحَسَدِ لَهُم- عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مِنَ الأَوْسِ والخَزْرَجِ فِي مَجْلِسٍ قَدْ جَمَعَهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ، فغَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ أَلْفَتِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ وَصَلَحَ ذَاتِ بَيْنِهِمْ عَلَى الإِسْلَامِ، بَعْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ العَدَاوَةِ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ البِلَادِ، وَاللَّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلُؤُهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَ فَتَى شَابًّا مَعَهُ مِنْ يَهُودَ فَقَالَ: ائْتِنِي بِمَنْ جَلَسَ مَعَهُمْ، ثُمَّ ذَكَرَهُمْ يَوْمَ بُعَاثٍ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنشَدَهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا يَتَقَاوَلُونَ فِيهِ مِنَ الأَشْعَارِ، وَكَانَ يَوْمَ بُعَاثٍ يَوْمًا افْتَتَلَتْ فِيهِ الأَوْسُ والخَزْرَجُ، وَكَانَ الظُّفْرُ فِيهِ لِلأَوْسِ عَلَى الخَزْرَجِ ففَعَلَ، فَتَكَلَّمَ القَوْمُ عِنْدَ ذَلِكَ وَتَنَازَعُوا وَتَفَاخَرُوا حَتَّى تَوَاتَبَ رَجُلَانِ مِنَ الحَيِّينَ عَلَى الرِّكْبِ أَوْسُ ابْنُ قَيْظِيٍّ أَحَدُ بَنِي حَارِثَةَ

مِنَ الْأَوْسِ وَجُبَارِ بْنِ صَخْرٍ أَحَدِ بَنِي سَلَمَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ  
 فَتَقَاوَلَا، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: إِنَّ شِئْتُمْ وَاللَّهِ  
 رَدَدْنَا الْآنَ جَدْعَةَ، وَغَضِبَ الْفَرِيقَانِ جَمِيعًا وَقَالُوا:  
 قَدْ فَعَلْنَا، السَّلَاحَ السَّلَاحَ مَوْعِدُكُمْ الظَّاهِرَةَ، وَالظَّاهِرَةَ:  
 الْحَرَّةَ. فَخَرَجُوا إِلَيْهَا وَانْضَمَّتِ الْأَوْسُ بَعْضُهَا إِلَى  
 بَعْضٍ، وَالْخَزْرَجُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ عَلَى دَعْوَاهُمْ الَّتِي  
 كَانُوا عَلَيْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ،  
 فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فِيمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِهِ  
 حَتَّى جَاءَهُمْ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُ اللَّهُ  
 أَبَدَعُوا الْجَاهِلِيَّةَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ بَعْدَ إِذْ هَدَاكُمْ اللَّهُ  
 إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمْ بِهِ وَقَطَعَ بِهِ عَنْكُمْ أَمْرَ الْجَاهِلِيَّةِ  
 وَاسْتَتَقَدَكُمْ بِهِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفِئَةِ بِكُمْ، تَرْجِعُونَ  
 إِلَى مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ كُفَّارًا»، فَعَرَفَ الْقَوْمُ أَنَّهَا نَزْغَةٌ  
 مِنَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدٌ مِنْ عَدُوِّهِمْ لَهُمْ، فَأَلْقَوْا السَّلَاحَ  
 مِنْ أَيْدِيهِمْ وَبَكَوْا، وَعَانَقَ الرَّجَالُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، ثُمَّ  
 انْصَرَفُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ قَدْ

أَطْفَاءَ اللَّهِ عَنْهُمْ كَيْدَ عَدُوِّ اللَّهِ شَاسٍ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي  
 شَأْنِ شَاسِ بْنِ قَيْسٍ وَمَا صَنَعَ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ  
 تَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا  
 اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وَأَنْزَلَ فِي أَوْسِ بْنِ قَيْظِيٍّ وَجُبَارِ  
 بْنِ صَخْرٍ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا مِنْ قَوْمِهِمَا الَّذِينَ صَنَعُوا مَا  
 صَنَعُوا ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا  
 الْكِتَابَ﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

وَأَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: «كَانَتْ الْحَرْبُ بَيْنَ الْأَوْسِ  
 وَالخَزْرَجِ عِشْرِينَ وَمِئَةَ سَنَةٍ، حَتَّىٰ قَامَ الْإِسْلَامُ فَأَطْفَأَ  
 اللَّهُ ذَلِكَ وَأَلْفَ بَيْنَهُمْ»<sup>(٢)</sup>.

هذا كلامُ الله يجمعُ ويوحدُ، وفي الاجتماعِ قوَّةٌ ومهابةٌ.



(١) فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني

اليمني (١/٤٢٢).

(٢) المصدر السابق (١/٤٢٢).

## ٢٢. توزيع الغنائم

ومن وسائل بناء القوّة الناعمة تأليفُ القلوب، وإزالةُ ما يُثير النفوس، وحفظُ القلوب نقيّةً صافيةً، والمالُ مظنةُ الخلاف والغيرة؛ ولهذا جاء التوجيه الربّاني حول الغنائم، فحكّمها وتوزيعها يعود لله والرسول، وليس للفتوة والوجاهة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

ويوضح النص القرآني أن خمس الغنائم ليس للمقاتلين: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

ويُحذّر سبحانه من الأخذ من غنائم الحرب، فهو العالم بحالة النفوس البشرية وضعفها مع المال، ومآلات ذلك الأخذ، وما يترتب عليه من عداوة وخصومة وثوراء البعض بغير حق، ثراءً بمالٍ مُشترك، وجاء التحذير حازماً ومُخيفاً، فحتى الرسول ممنوعٌ عليه الأخذ، وسمّى الله المال المأخوذ غللاً، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَغْلُ<sup>ع</sup> وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ<sup>ع</sup> ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

قال الشيخ ابن سعدي في تفسيره لهذه الآية: «الغلول هو: الكتمان من الغنيمة، والخيانة في كلِّ مالٍ يتولاه الإنسان، وهو محرّمٌ إجماعاً، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغلّ؛ لأن الغلول من أعظم الذنوب وأشرّ العيوب. وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدح فيهم،

وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً، وأطهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محلّ رسالته، ومعدن حكيمته ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. فبمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلامتهم من كل أمر يقدر فيهم، ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم؛ لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك؛ ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ﴾ أي: يمتنع ذلك ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته. ثم ذكر الوعيد على من غلّ، فقال: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يأت به حامله على ظهره، حيواناً كان أو متاعاً، أو غير ذلك؛ ليعذب به يوم القيامة، ﴿ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره على مقدار كسبه، ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم.

وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة: لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غلّه، ولمّا أراد أن يذكر توفيته وجزاءه، وكان الاقتصار على الغال يوهم - بالمفهوم أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون- أتى بلفظٍ عامٍ جامعٍ له ولغيره»<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَعْمَلَ عَامِلًا، فَجَاءَهُ الْعَامِلُ حِينَ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا لَكُمْ وَهَذَا أُهْدِي لِي فَقَالَ لَهُ: «أَفَلَا قَعَدْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمَّكَ فَنَظَرْتَ أَيُّهُدَى لَكَ أَمْ لَا»، ثُمَّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشِيَّةً بَعْدَ الصَّلَاةِ فَتَشَهَّدَ، وَأَتَنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: فَمَا بَالُ الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ: هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي لِي، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَنَظَرَ

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن

ناصر بن عبدالله السعدي (ص ١٥٥).

هَلْ يُهْدَى لَهُ أُمٌّ لَّا، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَغْلُ  
أَحَدُكُمْ مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْمِلُهُ  
عَلَى عُنُقِهِ، إِنْ كَانَ بَعِيرًا جَاءَ بِهِ لَهُ رُغَاءٌ، وَإِنْ كَانَتْ  
بَقْرَةً جَاءَ بِهَا لَهَا خُورٌ، وَإِنْ كَانَتْ شَاةً جَاءَ بِهَا تَيْعُرٌ،  
فَقَدْ بَلَغْتُ» فَقَالَ أَبُو حُمَيْدٍ: ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ  
يَدَهُ، حَتَّى إِنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى عُفْرَةِ إِبْطِيئِهِ»<sup>(١)</sup>.

إنه القرآن الكامل الشامل خيري الدنيا والآخرة.



(١) الحديث أخرجه البخاري (٨/١٣٠ رقم ٦٦٣٦).



## ٢٣. الحُكْم والطاعة

وردتِ القُوتان في القرآن بصورٍ متنوعة، وجاءتِ القُوتان مُجتمعتين ومنفردتين، ووضَّح القرآنُ أن بالقُوتَيْن يقومُ الحُكْم، ويصلح المجتمع، وورد الندب للقُوتَيْن بصيغة الحثِّ والترغيب، وبأسلوب الأمر والإلزام.

لقد أمر الله سبحانه بحفظ الأمانة وتأديتها، والحكم بالعدل بين الناس، وكلمة الناس تعني العدل في الحكم، مع المسلم وغير المسلم، ويشملُ التوجيه بيان أهمية أوامر الله وبركاتها، والتحذير من الهوى والميل في الحكم، فالله يسمع ويبصر كلَّ شيء، وبتنفيذ هذه الأوامر الربانية تصفو النفوس وتقوى الروابط، وهذه

الأوامر المُشْرِقةِ الناعمة، قوةً تزيد المجتمع المسلم تماسكًا وطمأنينةً واستقرارًا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

وفي الآية التي بعد هذه الآية يرد الأمر بطاعة الله ورسوله وأولي الأمر، وفي ذلك صلاحٌ وقوةٌ ومهابةٌ للمجتمع ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن نَّزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

في هاتين الآيتين إشارةٌ إلى القوتين الناعمة والصلبة؛ فالناعمة في الحكم بالعدل وحفظ الأمانة وأدائها، والصلبة في تنفيذ الأحكام، وتلك مسؤولية ولي الأمر، وتتطلب السيفَ والمهابة لولي الأمر.

قال الشيخ ابن سعدي: «أمر الله بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتنال أمرهما الواجب والمستحب واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم الولاة على الناس من الأمراء والحكام والمفتين؛ فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم؛ طاعةً لله ورغبةً فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرُوا بمعصية الله؛ فإنَّ أمرُوا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السرُّ في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكِّره مع طاعة الرسول؛ فإنَّ الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومَنْ يُطَعُهُ فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرطُ الأمرِ بطاعتهم أن لا يكونَ معصيةً.

ثم أمرَ بردُّ كلِّ ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله وإلى الرسول؛ أي: إلى كتاب الله وسنة

رسوله؛ فَإِنَّ فِيهِمَا الْفَصْلَ فِي جَمِيعِ الْمَسَائِلِ الْخِلَافِيَّةِ:  
 إِمَّا بِصَرِيحِهِمَا أَوْ عَمُومِهِمَا أَوْ إِيمَاءٍ أَوْ تَنْبِيهِ أَوْ مَفْهُومٍ  
 أَوْ عَمُومٍ مَعْنَى يُقَاسُ عَلَيْهِ مَا أَشْبَهَهُ؛ لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ  
 وَسُنَّةَ رَسُولِهِ عَلَيْهِمَا بِنَاءُ الدِّينِ، وَلَا يَسْتَقِيمُ الْإِيمَانُ  
 إِلَّا بِهِمَا؛ فَالرُّدُّ إِلَيْهِمَا شَرْطٌ فِي الْإِيمَانِ؛ فَهَذَا قَالَ:  
 ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾: فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ  
 مَنْ لَمْ يَرُدَّ إِلَيْهِمَا مَسَائِلَ النِّزَاعِ؛ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ حَقِيقَةً،  
 بَلْ مُؤْمِنٌ بِالطَّاعُوتِ؛ كَمَا ذَكَرَ فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا. ﴿ذَلِكَ﴾؛  
 أَي: الرُّدُّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، ﴿خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾؛ فَإِنَّ  
 حُكْمَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَحْسَنُ الْأَحْكَامِ وَأَعْدَلُهَا وَأَصْلَحُهَا  
 لِلنَّاسِ فِي أَمْرِ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ وَعَاقِبَتِهِمْ»<sup>(١)</sup>.

هذا، وقد نهى القرآن عن التنازع والخلاف وبين نتيجة

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي (ص١٨٣).

الخلافة ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا فَنَفْسُلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ووجه القرآن للسعي والصلح بين الطوائف المسلمة، وإن تمردت إحدى الطوائف فأمر بقتالها حتى تعود للطاعة ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقَىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

وأكد الرسول ﷺ على وجوب الطاعة فقال: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ، فَاقْتُلُوهُ»<sup>(١)</sup>.

وفي رواية أخرى عنه ﷺ قال: «إِنَّهُ سَتَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ،

(١) أخرجه مسلم (٣/١٤٨٠ رقم ١٨٥٢) (٦٠).

فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفْرِقَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ  
بِالسَّيْفِ كَأَنَّ مَنْ كَانَ». وفي رواية: «فَاقْتُلُوهُ»<sup>(١)</sup>.

وفي هذا الحديث يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ سَيَكُونُ «هَنَاتٌ  
وَهَنَاتٌ» جَمْعُ هَنَةٍ، وَهِيَ كَلِمَةٌ يُكْنَى بِهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ  
يُسْتَقْبَحُ التَّصْرِيحُ بِهِ، وَالْمَرَادُ بِهَا: الْفِتْنُ الْمُتَوَالِيَةُ وَأَنْوَاعُ  
الْمَفَاسِدِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ سَيُظْهِرُ فِي الْأَرْضِ أَنْوَاعَ الْفَسَادِ،  
وَمِنْهَا: الْفِتْنَةُ لِطَلَبِ الْإِمَارَةِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ  
مَنْ انْعَقَدَتْ أَوَّلًا لَهُ الْبَيْعَةُ؛ كَمَا فِي حَدِيثٍ لِمُسْلِمٍ: «إِذَا  
بُوعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الْأَخْرَ مِنْهُمَا»<sup>(٢)</sup>، فَمَنْ أَرَادَ  
أَنْ يُفْرِقَ -أَي: يَفْصِلَ وَيَقْطَعَ- أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهِيَ  
مُجْتَمَعَةٌ عَلَى إِمَامٍ وَاحِدٍ مُتَّفِقَةٌ عَلَيْهِ، وَكَلِمَتُهَا وَاحِدَةٌ،  
«فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «فَاقْتُلُوهُ»، أَي: إِنَّهُ

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٩/٣) رقم (١٨٥٢) (٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠/٣) رقم (١٨٥٣).

أَحَقُّ بِالتَّفْرِيقِ وَالتَّقْطِيعِ، وَذَلِكَ جَزَاءُ فِعْلِهِ؛ «كَأَنَّ مَنْ  
كَانَ»، أَي: سِوَاءُ كَانَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ الخِلاَفَةَ وَالوَلَايَةَ، أَوْ  
مِمَّنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا، شَرِيفًا كَانَ أَوْ وَضِيعًا، عَالِمًا كَانَ أَوْ  
جَاهِلًا، وَإِنْ كَانَ ذَا جَاهٍ أَوْ مَنَصِبٍ أَوْ صِيَتٍ حَسَنٍ، إِذَا  
تَحَقَّقَ مِنْهُ أَنَّهُ خَرَجَ عَلَى الإِمَامِ دُونَ رُخْصَةٍ شَرْعِيَّةٍ.

وَفِي تَمَامِ الرِّوَايَةِ عِنْدَ النَّسَائِيِّ: «فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ عَلَى  
الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ يَرْكُضُ»<sup>(١)</sup>،  
وَالْمُرَادُ أَنَّ الشَّيْطَانَ يَتَغَلَّغُ بَيْنَ الْمَفَارِقِينَ لْجَمَاعَةِ  
الْمُسْلِمِينَ، وَيَحْتُثُّهُمْ عَلَى أَنْ يُعَادِيَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيُسْرِعُ  
فِي الإِفْسَادِ بَيْنَهُمْ، وَعَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ الْخَارِجِيَّ لَا يُحْتَرَمُ  
لشَرَفِهِ وَلَا لِنَسَبِهِ، وَلَا يُهَابُ لِعَشِيرَتِهِ، بَلْ يُبَادَرُ بِقَتْلِهِ  
قَبْلَ شَرَارَةِ شَرِّهِ وَاسْتِحْكَامِ فِسَادِهِ.

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي سَنَنِه الْكُبْرَى (٤٢٨/٣ رَقْم ٣٤٦٩)، وَالْخَطِيبُ  
الْبَغْدَادِيُّ فِي الْفَقِيهِ وَالْمُتَفَقِّهِ (٤١٢/١)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ  
الْجَامِعِ (رَقْم ٣٦٢١).

وفي الحديث: الأمرُ بمُلازمةِ الجماعةِ، وفيه: النَّهْيُ  
عن الخروجِ على الأُمراءِ ووُلاةِ الأمورِ، وفيه: عَلَمٌ مِنْ  
أعلامِ نُبُوَّتِهِ ﷺ<sup>(١)</sup>.



---

(١) الدرر السَّنِيَّةُ، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

## ٢٤. خصومُ الناعمة

بدأت الخصومة لدين الله؛ القوّة الكاملة، منذ صدع رسول الله ﷺ بالحق، فقد صدّ كفار قريش دينَ الحقِّ بالقوّة الخشنة، فبطشوا بالمسلمين الأوائل وعذبوهم، وأمر الله عباده بالصبر، وهاجروا للحبشة؛ فراراً بدينهم.

وبعد أن عزّ الإسلام وقويت شوكتُهُ، وصارت له دولة ومهابة، جاء النفاق وظهر المنافقون، وتتوّع المكر والكيد، وذمّ الله النفاق وعاب المنافقين، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيهِمُ الْآخِرُ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٨) يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨-١٠].

وتتابع نزول الآيات القرآنية في تهزئة النفاق والمنافقين، وجاءت سورة (المنافقون) تعييبهم وتذمهم.

هذا، والمنافقون موجودون في عصرنا اليوم كما كانوا في عصر النبوة، هم ذوو الأهواء والتزلف، والقذح والاتهامات الظنيّة، والتقرّب لذوي الوجاهة بالباطل، والتشكيك في هذا وذاك. لقد تناول القرآن أولئك الأشقياء ليسلم المجتمع من دائهم وأذاهم، وتصفو النفوس، وتقوى اللحمة، وتتماسك الوحدة، قال تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّكُمْ  
خُشِبَ مُسْنَدَةٌ يُحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ  
قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

وذكر سبحانه جمال قول المنافق وتأثيره حتى يُظنَّ سامعه أنه صادق وناصح في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

ويكشف الله قباحة المنافقين وجراتهم ﴿إِذَا جَاءَكَ  
 الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ  
 وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

وحذر رسول الله ﷺ من النفاق والمنافقين، ومن الغيبة  
 والنميمة، ومن كل ما يُفَرِّق ويُزْرِع العداوة والخصومة.

أورد أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري الهروي، ما  
 رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَلَاعٌ وَلَا  
 دَيْبُوبٌ»<sup>(١)</sup>. والقلاع: هو الساعي بالرجل إلى السلطان  
 بالباطل.

وقال ابن الأعرابي: القلاع: الذي يقع في الناس عند  
 الأمراء سُمِّي قَلَاعًا؛ لأنه يأتي الرجل المُتَمَكِّن عند  
 الأمير، فلا يزال يقع فيه ويشي به حتى يقلعه ويُزِيله

(١) لم أجده في كتب الحديث. بينما أورده علماء اللغة في كتبهم،  
 (تهذيب اللغة، والصحاح).

عن مرتبته. والديوب: المنام القتات<sup>(١)</sup>.

والديوب: الذي يدب بالنميمة بين القوم<sup>(٢)</sup>.

ولقد لقيت المملكة العربية السعودية الخصومة الشرسة من أعداء القوة الناعمة التي تنفردُ بها المملكة وتعتزُّ بها، حقدٌ وكراهيةٌ ضد قوتها الناعمة، فوسموها بالوهابية ووصفوها بالغلو، وأطلقوا عليها بذيء الألفاظ؛ فمنذ قيام الدولة السعودية الأولى، والهجوم الشرس يتوالى من دول وأفراد، وأقارب وأبعاد، أدرك أولئك الأنجاس كما أدرك اليهود والمنافقون في عصر النبوة، أن قيامَ دولةٍ تحتذي وتعمل بمنهج دولة النبوة والراشدين، أدركوا ثبات مقومات الدولة الجديدة أمام زبدهم وباطلهم،

(١) تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت،

الطبعة الأولى، ٢٠٠١م (١/١٦٥-١٦٦).

(٢) المصدر السابق، (١٤/٥٤).

فجيشوا جيوشهم، وشنوا الحملات الباطلة، فوصفوا المنهج الشرعي للمملكة وعلماؤها، بأنهم ظل الله في أرضه، وأن العلماء هم المكلفون بتنظيم جميع شؤون الدولة، وأنهم هم الذين يحكمون الدولة فعلاً، وما علم أولئك الأفاكون، أن حكام الدولة السعودية يعلمون زيفهم، وأن بعض الحكام السعوديين جمع بين العلم الشرعي والقيادة السياسية، فالإمام الثالث في الدولة السعودية الأولى كان هو خطيب المسلمين في عرفات، يقول المؤرخ ابن بشر قد أدت الحج عام ١٢٢٦هـ، وقد وقف الإمام سعود بن عبدالعزيز في جموع الحجيج يخطب بهم، وقد بهر الحجاج بفصاحته وعلمه وبيانه!

وقد تحالفت دول الباطل فأسقطت تلك الدولة السعودية الفتية عام ١٢٢٣هـ، ولكن أنى لهم ذلك، فقد عادت للقيام مرة ثانية عام ١٢٤٠هـ على يد الإمام تركي بن عبدالله الذي يقول في قصيدة له:

وحصّنت نجدٍ عقب ما هي تطراً  
مصيونةً عن حرّ لفتح المذارى  
والشّرعُ فيها قد مشى واستقرّاً  
ويقرأ بنا درس الضّحى كلُّ قارى

في هذين البيتين، يفخر المؤسس الثاني رَحْمَةُ اللَّهِ بِخِدْمَتِهِ  
لدين الله، وكيف صار شرع الله القوّة الناعمة، كائناً  
يصول في نجدٍ بعزّةٍ وشموخ.

ثم سقطت الدولة السعودية مرّة ثانية وعادت على  
يد الملك عبدالعزيز رَحْمَةُ اللَّهِ عام ١٣١٩هـ؛ عادت للقيام  
بالمنهج العلمي نفسه والأساس الشرعي ذاته، وما زالت  
-ولله الحمد- قائمة بذلك.

هذا، ولا توجد دولة تسقط في التاريخ وتعود سوى  
الدولة السعودية، وذلك بتوفيق الله وإرادته، فهي الدولة  
الوحيدة التي ترفع رايتي العلم والسيف؛ القوّة الناعمة،  
والقوّة الصلبة.

ولذا ما فتىَّ الخصوم يكيّدون لقوة المملكة الناعمة،  
وينفّرون منها، بل يستثيرون الحكام أهل السياسة،  
ويعملون على إيجاد الفرقة والجفوة بين القوّتين،  
فيسمّون المملكة بالتخلف، وهضم حقوق المرأة، وتسلط  
المطاوعة، ويصفون العلماء بالمتوحشين ﴿يُرِيدُونَ  
أَنْ يُظْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ  
كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

يقول العالم الغربي ماكس فيبر عن قوة المملكة  
الناعمة في معرض التشويه والتفسير: «استولت مؤسسة  
العلماء من النصف الثاني من القرن الميلادي التاسع  
على قسم كبير من سلطة الخفاء الدينية فيما صار  
يعرف بالمرجعية الدينية، بوصفهم قادة الأمة حُماة  
بيضة الإسلام، فهم المسؤولون عن تعزيز الإيمان،  
وتعيين الموظفين الدينيين، والإشراف على بيت مال

المسلمين»<sup>(١)</sup>. وكال هو وغيره أوصاف الباطل، وعبارات الدس واللمز لاستثارة ذوي السلطة السياسية، وإيجاد القطيعة بين القوتين.

ووضع ماكس فيبر ثلاث صفات باطلة للقوة الناعمة؛ إذ قال:

**الصفة الأولى:** القوة الناعمة تقوم على التقاليد المقدسة بفعل شرعيتها العتيقة، فالعلماء يزعمون أنهم المستأمنون حصراً على التقاليد الموروثة عن السلف الصالح من خلال سلسلة متصلة من الإسناد قد تكون عائلية {يقصد -قبحة الله- القرآن وسنة رسوله ﷺ}.

**الصفة الثانية:** السلطة الكاريزمية التي تقوم على أساس صفات استثنائية ينفرد بها شخص بعينه يقصد

(١) علماء الإسلام، ملين، تعريب: محمد الحاج وعادل عبدالله، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، (ص١٩).

العلماء، معترضاً على مكانة العلماء التي قال الله عنها:  
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

[فاطر: ٢٨].

ومُعترضاً على ما ذكره الله عن العلماء واستتباطهم  
الأدلة الشرعية ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ  
أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ  
الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ  
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

وما علم ذاك المعارض وغيره أن الله قد قرن شهادته  
وشهادة الملائكة بشهادة العلماء قال تعالى: ﴿شَهِدَ  
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا  
إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وهو بهذا الزعم يريد طمس القوّة الناعمة التي ميّز  
الله بها الأمة الإسلامية.

وقال في معرض تنفيره: الصفة الثالثة: السلطة القانونية العقلانية التي تفرض نفسها، فبوصفهم خبراء في النصوص المقدسة تمكّن بعض العلماء من تغليب رؤيتهم للأمور بفضل كاريزما الوظيفة أو الزاد الفكري<sup>(١)</sup>. وجهل الرجل أو تجاهل أنهم لا يصدرن من ذواتهم، وإنما مما يستتبطونه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ!

هذا فيضٌ من سموم خصوم القوة الناعمة، خيَّبَ الله مساعيهم!



(١) المرجع السابق، (ص ١٩).

## ٢٥. القوتان والسعودية!

كما تناول القرآن الكريم موضوع القوتين، فقد أخذ رسول الله ﷺ في تفعيل القوتين بالمدينة المنورة، وطبقهما في إقامته لدولة الإسلام الأولى، وكان ﷺ هو المرجع لكلا القوتين، ومن بعده سار الخلفاء الراشدون على خطاه، واستعانوا ببعض الصحابة معهم في إدارة القوتين وتحريكها، وفي العصر الأموي والعباسي كان للقوتين مختصوها، ومع تعاقب العصور ضعف العمل بالقوة الناعمة، وصارت الشعوب تُدار بقوة السلاح، بالقوة الخشنة، وضعفت الروابط الاجتماعية، وبات الخوف والرعب وسيلة القيادة وترهيب المجتمعات، وتفرقت المجتمعات الإسلامية، وعاد معظمها للجهل

والخرافة، وتمزقت قواهم، وسيطر عليهم ذوو القوّة الصلبة والعتاد العسكري، فسفكوا دماء الشعوب المسلمة في الشرق والغرب، واستعمروهم واستلبوا خيراتهم، إلى أن شاء الله وقدر أن تعود للجزيرة العربية قيادة المقدرات الإسلامية، فهدى الله سبحانه إمارة الدرعية؛ تلك الإمارة الصغيرة في وسط نجد، هداها الله لحمل مشعل النور الذي أضاء الدنيا في المدينة المنورة، وصارت البيعة بين الإمامين؛ محمد بن سعود، ومحمد بن عبدالوهاب، وانعقد التحالف بين القوتين؛ الناعمة والصلبة، كما انعقد التحالف بين رسول الله ﷺ والأنصار، وانطلق نور الله، وتكوّنت دولة العزّ والخير، وقامت المملكة العربية السعودية، وباتت امتداداً لدولة الإسلام الأولى، تحكم بشرع الله، ويتولى العلماء مسؤولية القوّة الناعمة، والحكام من آل سعود إدارة الدولة عامة بقوتها؛ الناعمة والصلبة،

وقد تناولتُ تفصيل تلك الإدارة، وقصة تكوين الدولة  
السعودية في كتاب [القُوتان] دراسة قرائية في تاريخ  
وطننا المعطاء.

هذا، وبالله التوفيق، ومنه نستمد العون.

## فهرس المصادر والمراجع

الأذكار: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبدالقادر الأرئووط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، طبعة جديدة منقحة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

أسباب نزول القرآن: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي، تحقيق: عصام بن عبدالمحسن الحميدان، دار الإصالء، الدمام، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبدالموجود، وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

البداية والنهاية: عماد الدين، أبو الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدارسات العربية والإسلامية بدار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

التحرير والتنوير، «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

تفسير البغوي = معالم التنزيل في تفسير القرآن: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبدالله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: عبدالرحمن ابن ناصر بن عبدالله السعدي، تحقيق: عبدالرحمن ابن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

تفسير الشعراوي = الخواطر: محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم.

تفسير الشوكاني = فتح القدير: محمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني اليميني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ.

تفسير القرآن العظيم: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

تفسير القرآن الكريم: محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤٣٥هـ.

تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

الدرر السننية، الموسوعة الحديثية، شروح الأحاديث.

دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة: أحمد بن الحسين بن علي ابن موسى الخُسْرُوْجْردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: د. عبدالمعطي أمين قلعي، دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

الرحلة الملكية = رحلة الملك عبدالعزيز آل سعود: يوسف ياسين، جمع وتنقيح وتعليق: عبدالرحمن بن عبداللطيف بن عبدالله بن عبداللطيف آل الشيخ، المكتبة المكية، ودار ابن حزم.

رسالة في الطريق إلى ثقافتنا: أبو فهر محمود محمد شاكر، مكتبة المدني، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

زاد المسير في علم التفسير: جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن محمد الجوزي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

سنن ابن ماجه: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، وماجه اسم أبيه يزيد، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السُّجِسْتاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَورة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق: أحمد شاكر، ومحمد فؤاد عبدالباقي، وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

السنن الكبرى: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب النسائي، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبدالمنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

السنن الكبير: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة: محمد حمد الصوياني: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة التاسعة، ١٤٢١هـ.

شعب الإيمان: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، حققه: د. عبدعلي عبدالحמיד حامد، أشرف على تحقيقه: مختار أحمد الندوي، الهند، مكتبة الرشد، الرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

صحيح ابن حبان: المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع من غير وجود قطع في سندها ولا ثبوت جرح في ناقلها: أبو حاتم محمد بن حبان ابن أحمد التميمي البُستي، تحقيق: محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

صحيح الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبدالله، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

صحيح البخاري: أبو عبدالله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بردزبه البخاري الجعفي، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة السلطانية، بالمطبعة الكبرى الأميرية، ببولاق مصر، ١٣١١هـ، ثم صوّرها بعنايته: د. محمد زهير الناصر، وطبعها الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ لدى دار طوق النجاة بيروت.

صحيح الجامع الصغير وزيادته: محمد ناصر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، المكتب الإسلامي.

صحيح مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، ثم صورته دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م.

صور من حياة الصحابة: عبدالرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي، ٢٠١٣م.  
الطبقات الكبرى: ابن سعد، قدّم لها: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

علماء الإسلام، ملين، تعريب: محمد الحاج وعادل عبدالله، الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

فتح البيان في مقاصد القرآن: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي، وقدّم له وراجعه: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

الفقيه والمتفقه: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، تحقيق: عادل بن يوسف العزازي، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ.

الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، دار التاج، لبنان، ومكتبة الرشد، الرياض، ومكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

لسان العرب: محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي، الحواشي: لليا زجي وجماعة من اللغويين، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

المستدرک علی الصحیحین: أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري، دراسة وتحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

مسند الدارمي المعروف ب(سنن الدارمي): أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن  
بن الفضل بن عبدالصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، تحقيق: حسين  
سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية، الطبعة الأولى،  
١٤١٢هـ - ٢٠٠٠م.

المعجم الكبير: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم  
الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة،  
الطبعة الثانية.

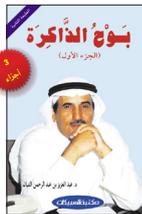
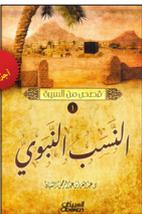
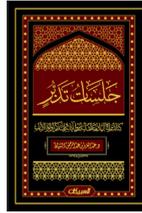
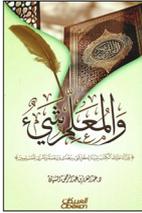
معرفة السنن والآثار: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي  
الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: عبدالمعطي أمين قلعجي، جامعة  
الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، دار قتيبة، دمشق، بيروت، دار الوعي،  
حلب، دمشق، دار الوفاء، المنصورة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

معرفة الصحابة: أبو نعيم أحمد بن عبدالله بن أحمد بن إسحاق بن موسى ابن  
مهران الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف العازي، دار الوطن للنشر،  
الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

الموطأ: مالك بن أنس، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد  
فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٥م.



صدر للمؤلف الكتب التالية



لقراءة وتحميل كتب المؤلف، يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

[www.thanyan.net](http://www.thanyan.net)